دراسات في
شعر سعاد الصباح

# الوطن

في شعر
## سعاد الصباح


أ. فضل الأمين
أ. نجوى حسن
د. فوزي عيسى
د. مختار علي أبو غالي

# الوطن في شعر سعاد الصباح

أ. فضل الأمين
د. فوزي عيسى
أ. نجوى حسن
د. مختار علي أبو غالي

# سعاد الصباح

مقدمة

د. سمير سرحان

# سعاد الصباح

تبرز سعاد الصباح بقامتها الشامخة في عالمنا العربي المعاصر أديبة متميزة في شعرها ونثرها فضلاً عن تميزها في مواقفها الإنسانية والوطنية والثقافية.. فهي قد كتبت الشعر.. كما كتبت النثر.. وكتبت الدراسات العلمية كما كتبت في القومية والوطنية..

غمست سعاد الصباح قلمها في مداد من قلوبنا.. ومشاعرنا.. آمالنا وأحلامنا.. لحظات الإحباط الهائلة العظيمة فينا.. ولحظات الفرح الغامر والنشوة الهائلة في قلوبنا، فعبرت دائماً عن مكنون مشاعرنا.. وعن كل قضايانا.. رجالاً ونساء.. فلم يقتصر شعرها علي التعبير عن مكنون المرأة.. عقلها وروحها.. وإنما عبّرت أيضًا عن الرجل.. فليس شعرها من قبيل الشعر النسائى ، وإنما هو شعر عظيم وكفى.

فسعاد الصباح.. منذ أن غمست النغم في مداد المشاعر الإنسانية الرقيقة الجياشة حيناً بالفرح، وبالغضب حيناً آخر، لم تكن تعبّر فقط عن المرأة.. عن كل ما يجول داخل قلبها وعقلها من أسرار.. وإنما كانت تعبّر أيضًا عن الرجل الشرقى بكل ما يحمله علي كتفيه من تراث العنجهية والتعالى وثقافة القبيلة.. كما تحدثت أيضاً عن مشاعر الرجل ليس فقط تجاه الأنثى.. وإنما تجاه الموقف الإنسانى الواحد.

خاضت سعاد الصباح منذ البداية حربها الشعرية بأسلحة الوزن والصورة الشعرية المفاجئة والجديدة، البسيطة والمركّبة في آنٍ واحد، وبتركيب القصيدة المحكم، وباللغة السهلة والمفردات الساحرة التأثير النافذة دائماً كالسهم.. في أعماق القلوب.. وبصوتها الشعري القوي المتجدد الذي يقول هأنذا أحمل إليكم لغة شعرية جديدة.. تعبّر عن مشاعر جديدة.. في عالم جديد..

خاضت سعاد الصباح منذ البداية بهذه الأسلحة الشعرية الحرب دائماً ضد القبيلة.. لا قبيلتها فقط.. وإنما قبيلة العرب أجمعين.. وقبائل العرب لا تعرف سوى قانون الرجل.. وتعتبر خروج نساء القبيلة على هذا القانون.. نوعاً من التمرّد غير المقبول ولا المحمود..

وهكذا كان على سعاد الصباح أن تعود إلى صفوف الرجال في القبيلة.. وأن تخنق صوتها الشعري الذي يعبّر عن جموح العاطفة وقوّة المشاعر ورهافة الإحساس.. لكنها عملت وبإصرار وعزيمة لا تلين على أن تكسر قانون القبيلة لتصبح ذاتاً متفردة ونسيجاً وحدها.. يرتفع صوتها في كل مكان تطالب باحترام عقلها.. واحترام قلبها.. واحترام إنسانيتها.. وألا ينظر أحد إليها كما ينظر إلى إحدي نساء القبيلة.. جسداً جميل التكوين أو وجهاً رائع القسمات.

وعندما فقدت سعاد الصباح وطنها، لأشهر طالت أو قصرت، ناضلت وكافحت كأعتى الرجال، وتجاوز حبّها مشاعرها الشخصية ليحتضن كل ذرة من تراب الوطن السليب.. وعندما كتبت **هل تسمحون لي أن أحب وطني** كانت رمزاً للوطنية الكويتية بل وللوطنية العربية الخالصة في أعظم وأعلي تجلياتها.. بل إنها مثل شاعر السيف والقلم محمود سامي البارودي جمعت بين أبياتها المشحونة بحب الوطن ولوعتها علي استباحته من جانب المعتدي، وبين النضال الحقيقي علي أرض الواقع، فأخذت تقود المظاهرات في ميادين العالم تنادي بالحق في الوطن.. وفي الصلاة علي ترابه.. وتدين البغي والظلم والطغيان.

إن سعاد الصباح، التي تعتبر في طليعة شاعرات العرب، بدأت حياتها الشعرية بصوت رومنسي لكنه متمرد.. رفضت للفتاة العربية أن تكون مجرد وجه أو جسد جميل.. رفضت مواضعات فرضتها عليها التقاليد الصارمة التي سلبتها إنسانيتها وحوّلتها إلي مجرد فرد من الدرجة الثانية في جماعة يحكمها الذكور، تلتزم بما تقوله الجماعة وتفعل كما تؤمر.. واكتشفت من خلال روحها الشاعرة ضرورة تفردها.. فتفردت.. وأصبحت صوتاً قوياً أصيلاً فريداً يعبّر عن العصر بكل مفرداته..

د. سمير سرحان

# استثنائية انتماء
# سعاد الصباح للأرض

أ. فضل الأمين

# استثنائية انتماء سعاد الصباح للأرض

منذ عقـدين من الزمن ، بدأت موضـوعة المكان في الأدب تشغل اهتـمام النقاد والباحـثين في الرواية والمسرح كثـيراً ، وفي الشعر قليلاً .

وفي المكتبة العـربية دراسات محدودة حـول هذه المسألة لعل أكثرها شمـولاً كتاب الموسوعة الصغيرة لياسين نصير حول المكان في الرواية ، ثم دراسـة لغالب هلسـا قدمـها كـورقة عـمل إلى «ملتقى الرواية العربية الجديدة» الذي انعـقد في فاس بالمغرب عام ١٩٧٩ ، معتمداً على نظرية الفيلسـوف الفرنسي غاستون باشلار الذي عنى بالكشف عن شـاعرية المكان . وظهـرت كذلك بعض الدراسات عن خصائص المكان في أعمال نجـيب محفوظ . وأخيراً ظهر كـتاب جديد لشاكـر النابلسي تحت عنوان «المكان في الرواية العربيـة»، اقتصـر على جماليـات المكان في أعمال غـالب هلسا نفسه .

وإذا كان النقـد العربي لم يول المكان حقه في هذا الـعصر ، فإن الدراسات الاستشراقية والمناهج الأكاديمية في الجامعات العربية أجمعت على أنَّ للمكان تأثيراً عميـقًا في الشعر العربي القديم ،

وفي مختلف عصوره ، فكانت تسمية شعراء الحضر وشعراء البوادي . . وفي التجربة النقدية المعاصرة ظهرت تسمية «شعراء الجنوب» وهى الاسم الذي أطلق على جماعة من الشعراء اللبنانيين في السبعينيات .

وسواءٌ لحظ النقاد موضوعة المكان في الشعر الحديث المعاصر أو أهملوها ، فإن الثابت أن العديد من شعراء الحداثة أبدوا اهتمامًا بالمكان. وأخص بالذكر منهم بدر شاكر السياب الذي أكثر من ذكر قريته «جيكور»، ومن ذكر كلمات : الخليج ، المحار ، النخيل ، وهي رموز للمكان (البصرة وجنوب العراق) . . ومثله أحمد عبد المعطي حجازي .

ونكهة المكان في الشعر العربي المعاصر طبعت العديد من نصوص السوريين واللبنانيين والمصريين والفلسطينيين والعراقيين في حين أنها غابت عن شعر الخليجيين عمومًا والكويتيين خصوصًا ، باستثناء ما يرد من خصوصيات المكان في الشعر النبطي والشعبي الخليجي . وظل المكان غائبًا عن الشعر الخليجي المعاصر إلى أن جاءت سعاد الصباح فاستحضرته بامتياز.

أجل قبل «أمنية» و«إليك يا ولدى» و«فتافيت امرأة» و«فى البدء كانت الأنثى» و«برقيات عاجلة إلى وطنى» و«آخر السيوف التي رحلت» و«قصائد حب» . لم أقرأ لكويتي أو لخليجي من

المعاصرين أو الغابرين كلامًا فيه مثل ما في شعر سعاد الصباح من وَلَهٍ بالأرض ووجدٍ بالصحراء، وعشق للرمال ولرياح الطوز السموم ، ولا مثل هذا الاعتزاز بتاريخ أبعد ما يُقال فيه إنه لم يكتب بعد ، ولا مثل هذا الانتماء لشعب ما زال فى طور التكون والبحث عن الذات والهوية، باعتراف كل الوقائع.

الانتماء للأرض يغطي مساحة شعرها ، ويتركز على أرض الكويت ولا يتجاوزها . أما الانتماء للعرض فيغطي مساحة الشعر ومساحة القلب والأعصاب ، ويتجاوز شعب الكويت إلى الإنسان العربي أينما وجد .

تقرأ شعر العشق هذا من دفة كتابها الشعري الأولى إلى دفته الأخيرة. وتطالعك بواكيره في مستهل باكورة المجموعات السبع «أمنية» حيث يطل عنوان زمان اللؤلؤ ، وحيث :

في بِلادي ، في مَغَاني أرْض أجْدَادي الجميلةْ
في البَوَادي ... بعد أجْيَالٍ من الصَّفوِ طَوِيلةْ

ذَاتَ يَوْمٍ ... هَبَطَ السَّاحرُ من ماء السَّماءْ
فكسا بالذَّهَب الأسْوَد أرْض الصَّحَراءْ ..

وَرآهُ القومُ .. واستغرقهُم هذا البريقْ
فَتناسَوْا أنَّهْم جاؤوا من البَيْت العَتيقْ

أنَّهم جاؤوا وفي جُعْبتهم خَيْرُ عَتَادْ
من تَقاليدَ ، وأخْلاق ، وحُبٍّ للجهَادْ
وتنَاسَوْا لَذَّة الكدِّ وأيَّامَ الأرَقْ
وتَنَاسَوْا لُقْمةَ العَيْش يُزكِّيها العرَقْ

والسُّرَى في زَحْمة الأمواج ، في وَجْه الرِّياحْ
وكِفَاحَ البَحْر ... ما أعْظمَه هذا الكفَاحْ

والصَّواري رَافعات في الورَى أشْرَف بَنْد
وغناءَ الرَّحَلات الهُوجِ في هِند وسنْدِ ..

يا لأجدادي ... وكَمْ أودَى بهم طولُ الطَّريقْ
في سَبيلِ المَجْدِ ، ما بين شَهِيدِ وغَريقْ

يا لَهُمْ ، واللؤْلؤُ المكنُونُ في جوْف البِحَارْ
لم يَزَلْ يسألُ عنهم ، كلَّ لِيل ونهارْ

لم يَزَلْ في شُعَبِ المَرْجَان حيّاً ودَفِينْ
في قرارٍ لم تَطَأْهُ قَدَمٌ مُنْذُ سنِينْ
هَاتفًا : مَاذَا دهَاكُم يا بَنِي الجيل الجَديدْ ؟.
فَقَنعتُم بالرَّغيفِ السَّهْلِ والعَيْشِ البَليدْ

وقَعدْتُمُ عَن طِلابي ، وزَهدتُم في حِيَاضي ؟
أتَرَوْنَ الذَّهبَ الأَسْوَدَ أصْفَى مِنْ بَيَاضي ؟

في بِلاَدي .. في مَغَاني أرْض أجْدَادي الجَميلةْ
لي حِكاياتٌ ، وآياتٌ ، وأبياتٌ طويِلةْ

سوفَ يَرْوي سِرَّها الأطفالُ للأجْيَال عَنيَّ
وعَنِ اللؤْلؤِ والمَرجَانِ في العَهْدِ الأَغَنِّ

وعن الغَوّاصِ لا يعرفُ ما لونُ الهمومْ
وهو يَهْوِي في دجى البحر ، ويصطادُ النجوم

لِيُسَوِّيَها عُقُوداً في صُدورِ الغَانياتْ
تَمْلأُ الأَيَّامَ نُوراً وتُضيءُ الذِّكْرَياتْ
هكذا ينتحرُ الخيرُ ، وتبقى الذكرياتْ
يا زَمَانَ اللؤْلؤِ الحُرِّ ... زمانُ الحُرُّفاتْ

دلّني على كويتية أو كويتي يقبل أن يبيعَ يومًا واحدًا من عصر النفط بألف ألف سنة من زمان اللؤلؤ . . . وحدها سعاد الصباح رضيت أن تعقد مثل هذه الصفقة ، فباعت كل عصر النفط ، بذهبه ودرّه واشترت عقدًا من لؤلؤ الكلمات .

هذه الذاكرة المرجانية التراثية تتوهج في طول كتابها الشعري (٧ مجموعات) وفي طول خطابها الشعري . فتقرأ نسخة أخرى عنها في المجموعة الشعرية الثانية «إليك يا ولدي» تحت عنوان: «ارفعي المشعل» ، ثم نسخة أخرى مُنقَّحة تحت عنوان «فتنة» :

كُويتيَّةٌ أنا بنْتُ الخليجْ
وصاحبةُ الهامَةِ العاليَةْ

وملْءُ دمي مَجْدُ آلِ الصَّبَاحْ
ومنهُمْ بناتي وأَبْنَائِيَهْ

الحنين للوطن والأرض في شعر سعاد الصباح يذكرنا بالشعراء المهجريين من لبنانيين وسوريين . كأبي ماضي ورشيد أيوب . بيد أن فيه شيئًا جديدًا ، حيث يمتزج ذلك الحنين بالجزع والخوف على الكويت من مخاطر الأدواء التي حلت بلبنان وشعبه: «التعصب المذهبي والكياني» وهذا ما يقربها من الشعر القروي بين المهجريين :

أَيَا وَطَني أنا في غُربتي
أَحِنُّ إلى أرضكَ النائيَةْ
أراها على البُعد طَيَّ الفؤاد
كأنكَ ما بين أَحضانِيَةْ
وأبكي .. وأجزعُ .. خوفًا عليك
من الفِتْنةِ المُرَّةِ الطاغية

فمأساةُ لبنان لمَّا تزلْ
تَلوحُ بألوانها القانيةْ
فإياكَ إياكَ أنْ يخدعوك
وأنْ يدفعوكَ إلى الهاوِيَةْ

وإذ تسترجع الشاعرة ماضي بلادها العريق تقول :

أُناشدُ قومي . ألا يذكرون ؟
لَيَالِينَا الحلوةَ الصافيَةْ
وسامرُنَا العذْبُ حولَ المواقِدِ
يَجْمَعُنَا أُسرةً هانيةْ
تدورُ الأحاديثُ فيه ثَنَاءً
وتنبضُ بالخير والعافيةْ
أعيدوا لنا ذِكْرَ تلكَ الليالي
وكُفّوا عن اللهجة الجافيةْ
فنحنُ رَضِعْنا لِبانَ الخليجِ
وعشْنَا على هَذِهِ البَادِيَةْ

هذا الماضى يجب أن يكون عبـرة للحاضر . لأن هذه الديرة

هي جـزء من الوطن العـربي الشـاسع الأرجـاء وهي أيضًـا درة الخليج:

وأَجْدادُنا مَنْ أَقاموا الشِّراعَ
وساروا على الموجة العاتيَةْ
فلا تجعلوا في مهَبِّ الرياحِ
صحائفَ امجادنا الماضيَةْ
ولا تقطعوا الرحِمَ المُرتجى
لمستقبلِ الأمَّة الغالية
ولا تَخْفِضُوا هامَكُم كالنِّعَامِ
تُدارُون عاقبةَ الغاشيَةْ
فهذا الحِمى دُرَّةٌ للخليجِ
وتاجٌ على رأسه العاليةْ
فَصُونوهُ من عَثَراتِ النفوسِ
ومِنْ طَمعِ الفئَةِ الباغيَةْ ...

* * * * *

# صورة الوطن
# فى شعر سعاد الصباح

د. فوزى عيسى

# صورة الوطن
# في شعر سعاد الصباح

تتجـذَّر صورة الوطن الكويتي في ذاكرة الشاعـرة ، وتعشش في وجدانها ، وتعبر في أشعارها عن عاطفتها الوطنية المتوهجة لا سيمـا في ديوان «برقيات عاجلة إلى وطني» الذي يتـضمن ثماني قصائد وطنية هي : (إنني بنت الكويت - وردة البحر - بطاقة من حبيبتي الكويت - سوف نبقي غاضبين - سيرحل المغول - ثلاث برقيات عاجلة إلى وطني - من قـتل الكويت - نقوش على عباءة الكويت) .

وتتمـحور هذه القصـائد حول العاطفـة الوطنية ، فالشـاعرة معتزة بوطنها، فخورة بانتمائها إلى الكويت ، تقول :

إنني بنت الكويت
بنت هذا الشاطئ النائم فوق الرمل ،
كالظبي الجميل
في عيوني تتلاقي
أنجمُ الليل ، وأشجار النخيل

من هنا .. أبحر أجدادي جميعًا

ثم عادوا .. يحملون المستحيل

وتتغني الشاعرة بحبها لوطنها ، وترسم صورة الوطن الماثلة في ذاكرتها ، فالكويت هي واحة الحب ، وبرُّ الأمان ، وأرض الإباء والكبرياء، وهي الشعب الكريم ، والشواطئ المصقولة اللامعة ، والبحر الذي يوزع هداياه الثمينة على الناس كل صباح.. إن الوطن في أبسط صوره هو كوب الشاي الذي يشربه الأب كل صباح وهو يحتضن أبناءه ، وهو ابتسامة الأم الطيبة القلب المعطاءة ، وهو جديلة الشعر ، وكوب الحليب الذي يتناوله الأطفال قبل الذهاب إلى المدرسة .. الوطن هو الطفولة والصبا والشباب .. هو الماضي والحاضر والمستقبل .. هو الحبُّ والعنفوان .. هو الأرض .. والخيمة والرمل والنخيل ووردة البحر :

كُويتْ.. كُويتْ

موانئ أبحر منها الزمان

وواحة حُبٍّ ، وبرُّ أمان

وشعب عظيمُ

وربٌّ كريم

وأرض يسيِّجُها العنفوان

كُويتْ .. كُويتْ

شواطئ مصقولة كالمرايا

وبحر يُوزع كل صباحٍ علينا

ألوف الهدايا

وشايُ أبي

وابتسامة أمي

ومحفظتي ، وجديلة شَعْري

وكوب الحليب قُبيل الذهاب إلى المدرسة

وأوّل مكتوب حُبٍّ أتاني

فأشعل عاصفة في دمايا ..

كُويت .. كُويتْ

أشيلُك ..

حيث ذهبت ، حجابًا بصدري

أشيلُك ..

بُرعُم وردٍ بأعماق شَعْري

أشيلُكِ في القلب وشمًا عميقًا

لآخر

آخر أيام عُمري ..

وتحتفي الشاعرة بالأبعاد التاريخية للوطن . . فقد بدأت رحلة السندباد في الكويت . . ورسمت أنامل ابن ماجد صورة الوطن . . فولدت الكويت من رحم التحدي . . وتألقت مياه الخليج بهذه اللؤلؤة الثمينة . . وامتزج الشعر بالنخيل :

كُويت .. كُويتْ

هنا .. ابتدأت رحلة السندبادْ

هنا .. وردة البحر قد أزهرت

وراح ابن ماجد

يقطف نجمًا .. ويزرع نخلاً ..

ويخلقْ في لحظات التحدي بلاد ..

هنا الشعر والنخل يغتسلان معًا

في مياه الخليجْ ..

فجاءت ربابُ إلى وعدنا ..

وبانت سعاد ..

وتمتزج صورة الوطن برؤية الشاعرة المناضلة وطموحها الفكري والسياسي ، فهي تحلم بأن يكون وطنها ملاذًا للمثقفين والشعراء .. وموطنًا للطيور المشردة من المفكرين والأدباء ، بعد أن قرر العالم العربي اغتيال الفكر الحر وإبادة كل الطيور الجميلة وإطلاق النار على الحروف المقاتلة :

كُويت .. كُويت

لقد قَّرر العالمُ العربي اغتيال الكلامْ

وقرر أيضًا ..

إبادة كل الطيور الجميلة ، كل الحمامْ

ونحن طيور مشردة لا تريد سوى حقها بالكلام

ونحن طيورٌ مثقفة لا تُطيقُ ..

غسيلَ الدماغ ، وكسر العظامْ

ونحن حروف مقاتلة ..

سوف تهزم بالشعر كُلَّ عصور الظلامْ

ويَسعدني أن تظل بلادي

ملاذ العصافير من كل جنسٍ .

وبيت المغنين والشعراء

غير أن هذه الصورة الحلمية الجميلة التي ترسمها الشاعرة للوطن كما تحلم به وكما تحب أن تراه لا تصرف الشاعرة عن سلبيات الواقع ، فتكشف هذه السلبيات وتحذر من الأخطار الداخلية والخارجية ، فتكتب قصيدة بعنوان «فتنة» تحذِّر فيها من المذهبية والأهواء التي قد تعصف بأمن الوطن واستقراره ، فتقول :

بأيِّ الشرائع هم يحكمون ؟
ويلهون بالقيم الراسيةْ ؟
أما وحدتنا دماء العروبةِ
والملّةُ السمحةُ الهاديةْ ؟
وكيف يعودون للمذهبية ؟
وهي الوقيعةُ والدّاهيةْ ..
صغار يُمزِّق شملَ الكويت
ويمضي بقومي إلى الهاوية

وتناشد الشاعرة قومها أن يتنبهوا لما يحاك ضد الوطن وأن يصونوه من المؤامرات والفتن والأطماع ، تقول :

ولا تخفضوا هامكم كالنعامِ
تُدارون عاقبة الغاشيةْ
فهذا الحِمي دُرّة للخليج
وتاج علي رأسه العالية
فصونوه من عثرات النفوسِ
ومن طمع الفئة الباغيةْ

وتتصاعد نغمة الخطاب التحذيري ، وينتاب الشاعرة قلق عميق ، وجزع شديد من أن تتكرر مأساة لبنان في وطنها ، فتعصف به الفتن ، ويرتفع صوتها مُحذرًا جزعًا باكيًا وهي بعيدة عن الوطن ، فتقول :

أيا وطني .. أنا في غربتي ..
أحنُّ إلى أرضك النائيةْ
أراها على البُعد طيَّ الفؤاد
كأنك ما بين أحضانيهْ ..
وأبكي .. وأجزع .. خوفًا عليكَ
من الفتنة المُرَّة الطاغية
فمأساة لبنان لما تزل

تلوح بألوانها القانية

فإياك .. إياك .. أن يخدعوك

وأن يدفعوك إلى الهاوية

وكثيراً ما تدعو الشاعرة قومها إلى التمسك بالماضي الجميل حيث كانت النفوس أكثر صفاءً ونقاءً بعيدة عن زيف المادة وطغيانها ، تقول :

أناشد قومي ، ألا يذكرون ؟

ليالينا الحلوة الصافيةْ ..

وسامرنا العذبُ حول المواقدِ

يجمعنا أسرةً هانيةْ

تدور الأحاديثُ فيه ثناءً

وتنبض بالخير والعافية

أعيدوا لنا ذكر تلك الليالي

وكفوا عن اللهجة الجافية

فنحن رضعنا لبان الخليج

وعشنا على هذه البادية ..

ويتردد هذا الخطاب التحذيري في غير قصيدة ، فهي ترى أن عصر المادة قد جرف أمامه كثيرًا من قيم الماضي الجميلة ، فصارت الأخلاق كالعملات القديمة ، وتناسي الناس تقاليدهم الأصيلة ، وأخذوا يلهثون وراء أباطيل الحضارة الزائفة والمدنية الغربية ، تقول :

رُبَّما تأكلنا يومًا .. وباسم المدنية ..
يسقط الوعي .. ويغدو الشعب للغازي ضحيَّةْ
ثم نُمسي بعد هذا الهون ، تاريخًا قديمًا
ورسومًا باليات .. آه ما أشقي الرسوما
سيقولون : هنا .. كانت .. كويت .. وإمارهْ ..
رفعت في البحر ، قبل البرِّ ، أعلام الحضارة
شقَّت الريح ، وأجرت في المحيطات السفينة
قبل أن ينشأ ملك ، وملوك ، ومدينة
ثم غرَّتهم أباطيلُ الحضاراتِ الجديدة
فتناسوا أنهم إرثُ التقاليد العتيدة

وتدعو الشاعرة شباب بلادها إلى المحافظة على الوطن وتقاليده وتراثه، وتناشدهم أن يفيقوا من غفوتهم وأن يتنبهوا للفتن والأطماع ، تقول :

يا شبابي .. إن فيكم كل آمالي الرفيعة
وبلادي بين أيديكم ، تراث ووديعة
فانهضوا من غفوة الوعي ، ومن أسر السكينةْ
قبل أن تغرق في الطوفان ، أعلامُ المدينة

وتمضي الشاعرة في كشف سلبيات الواقع انطلاقًا من عاطفتها الوطنية، وحلمها بأن يكون وطنها أجمل الأوطان ، فتنزع إلى الماضي الجميل ، وتري أن بحر النفط قد أغرق كثيرًا من القيم الأصيلة والعادات الجميلة ، وتحنُّ إلى زمان اللؤلؤ وأيام الكفاح والعرق . . تقول في قصيدة بعنوان «زمان اللؤلؤ» :

ذات يوم .. هبط الساحر من ماء السماء
فكسا بالذهب الأسود أرض الصحراء
ورآه القوم .. واستغرقهم هذا البريق
فتناسوا أنهم جاءوا من البيت العتيق
إنهم جاءوا وفى جبهتهم خير عتاد
من تقاليد ، وأخلاق ، وحب للجهاد
وتناسوا لذة الكدِّ وأيام الأرق
وتناسوا لقمة العيش يزكيها العرق

والسُّرّى في زحمة الأمواج في وجه الرياح
وكـفاح البـحـر .. ما أعظمـه هذا الكفـاح

هكذا تعتز الشاعـرة بماضي الكويت ، وتنحاز إلى حياة الكدّ والكفـاح، وتحلم بالعـودة إلى زمـان اللؤلؤ وصـداقة الـبحـر ، وترفض عصر النفط وتصفه بـ «الشيطان الرجيم» الذي أغري أهل الكويت الطيبين وأغواهم ببريقه ، وأنسـاهم الماضي الجميل بقيمه وعاداته الأصيلة :

إنني بنت الكويت
ومع اللؤلؤ في البحر ترعرعتُ ،
ولملمت بحارًا ونجومًا
آه .. كم كان معي البحر حنونًا وكريمًا
ثم جاء النفط شيطانًا رجيمًا
فانبطحنا عند رجليه رجالاً ونساءَ
وعبدناهُ صباحًا ومساءَ
ونسينا خلق الصحراء .. والنخوة .. والقهوة ..
والمهباج .. والشعر القديما ..
وغرقنا في التفاهات ..

هدمنا كل ما كان مضيئًا .

وأصيلاً .. وعظيمًا

وترتفع وتيرة الخطاب الشعري وتزداد غضبًا وحدة وهي ترصد الواقع السلبي للمجتمع الذي أفرزه عصر النفط ولا يفوتها أن «تضع الماضي الجميل» (زمان اللؤلؤ) في مواجهة هذا الحاضر بصوره ومظاهره السلبية ، تقول :

إنني بنت الكويت

غرفتي الشمسُ ..

ومن بعض أسمائي الصباحْ

وجدودي اخترعوا الأمواجَ .. والبحرَ ..

وموسيقي الرياحْ

صادقوا الموت .. فلا الخيلُ استراحت

من أمانيهم ..

ولا السيفُ استراح

ثم حلَّتْ لعنة النفط علينا

فاستبحنا كل ما ليس يُباحْ

فالبساتينُ فراشُ للهوي

والنساءُ الأجنبياتُ يُعطِّرن لياليا الملاحْ
والدنانيرُ على الأقدام تُرمى ..
وعلى الأجساد تصطفُ القداح
هكذا يا وطني ..
تُرفع رايات الكفاح !!
هكذا يبكي على الحائط سيف
أثري لأبي ..
هكذا ، من يأسه ، يبكي السلاحْ ..

وتحدث المفارقة الغريبة ، ففي الوقت الذي تغضب فيه الشاعرة على الواقع السلبي ، وتدعو فيه بلادها إلى تجاوزه ، والإنضمام إلى (جيش العرب) .. إذا بالكويت تتعرض للغزو العراقي الذي لا يبقي ولا يذر ، وينسف كل الأحلام والطموحات التي تبنتها الشاعرة ، ويضرب الأمة العربية في مقتل، فقد تراجعت القضية الفلسطينية إلى الوراء ، وكانت إسرائيل هي الرابحة الأولى في حرب الخليج .

تقول الشاعرة في إحدي المقالات التي كتبتها أثناء الغزو العراقي وجمعتها في كتاب بعنوان (هل تسمحون لي أن أحب

وطني) : «إنه لم يحدث في التاريخ العربي أن ضاع الصواب ، وانطفأ العقل ، ومات البصر والبصيرة كما يحدث في هذه الأيام. لم يحدث أبدًا ، أن يشرب العربي من دم العربي حتي يسكر . وأن يحرق العربي جسد أخيه العربي، ويتلذذ برائحة الشواء فالصواريخ العربية تسقط فوق رؤوس العرب والمدافع العربية تدك عواصمهم ، والمنطقة كلها كرة مشتعلة تتدحرج نحو الهاوية ، والإنسان العربي مسحوق كالفأرة بين أقدام المقاتلين . هذا هو الخراب الكبير الذي لا خراب بعده ، وهذا هو الموت الأخير الذي لا قيامة بعده».

وإذا كان ما حدث فجيعة لكل عربي ، فإن فجيعة الشاعرة كانت أكبر وأعظم ، فقد اغتال هذا الغزو أحلامها القومية الكبري في توحد العرب وتضامنهم للتصدي للأخطار الخارجية المحدقة بهم . وكانت فجيعتها أكبر لأنها وقفت إلى جانب العراق وتغنت بأمجاده كما لم يفعل شاعر عربي . تقول الشاعرة في مقال بعنوان «كويتيون بلا قبور» :

**«لم يُغنِ أحد لمجد العراق كما غنيت أنا . ولم يسقِ أحد مياه دجلة بدموعه ، كما سقيتها أنا . ولم يرشق أحد جنوده بالورود والريحان ، كما رشقتهم أنا . وأخيرًا ، لم تتمن امرأة عربية أن يكون جسدها (نخلة تشرب من شط العرب) إلا أنا .. لقد كنت**

دائمًا متهمة بأنني عراقية الهوي ، وأن كتاباتي ، شعرًا ونثرًا ، مبللة بأمطار العراق ، ورطوبة أنهاره ، ونضارة بساتينه وكنت دائمًا أفاخر بهذه التهمة الجميلة ، لأنني كنت أعتبر العراق الجناح العربي القومي الذي يغطينا ، ويحمينا ، ويدافع عن مستقبلنا ومستقبل أولادنا . وبكلمة أخري ، فإن إلتزامي بالخط العراقي ، كان التزامًا بالخط القومي ، الوحدوي . كان العراق يمثل لي ، تلك القوة الصاعدة ، الواعدة ، التي افتقدناها في السبعينيات ، كما كنت أري فيه البديل القومي، والاستراتيجي الذي سيصحح ميزان القوي بيننا وبين إسرائيل ، وينهي حالة الهوان ، والتخاذل والتشرذم والانفلات التي عصفت بدول المنطقة .

فإذا كنت وقفت من العراق كما وقف كل أهل الكويت في أيام الشدة فلأنه يمثل لنا السند ، والمدد ، والضمانة القومية والخيار القومي الوحيد بعدما سقطت جميع الخيارات . فما الذي حدث حتي غامت الصورة الجميلة ، وبهتت ألوانها ، وكيف يبست بين عشية وضحاها بساتين النخيل في قلبي ، وماتت العصافير ، واختفي ضوء القمر ؟.. كيف انكسر زجاج السماء فجأة فوق رأسي .. ودخلت شظاياه في عيوني !!

إنني أكتب هذه الكلمات وأنا مدفونة تحت رماد هذا الزلزال العنيف الذي طمر أحلامي الجميلة .. وطمرني .. إنني أتابع

نشـرات الأخبـار علـى التليفـزيون البـريطـاني ، مع آلاف من الكويتيين فـلا نصدق مـا نرى .. ولا نصـدق ما نـسمع .. كـيف يمكنني أن أصـدق ، أنا العـربيـة الكويتيـة ، أن بلدي يُلغي بجـرة قلم وأن تاريخي تأكله جنازير الدبابات الصديقة ؟ كيف يمكن أن أستيقظ صباحًا ، لأجد نفسي بلا بيت ، ولا أهل ، ولا هوية ، ولا تذكرة سفر أعود بها إلى ربعي ، وديرتي ، وأبناء عمومتي . من ذا يصدق أن يموت عمي بين يدي في أحد مستشفيات لندن ، بجلطة في دمـاغه بعـد سمـاعـه أنباء الغـزو العـراقي على الكويت ، ولا أستـطيع أن أنقله إلى الكويت ليدفن فـي ترابها حـسب وصيـته ؟ وأبقي أيامًا أفتش له عن تراب يحتويه .

هل أصبح الكويتي الذي يموت في الخـارج ممنوعًا من السكن في مقـبرة كـويتية ، تـستريح فـيهـا عظامه ؟ وهل من المعـقول أن يحتل الجـيش العراقي الصديـق .. بلادنا ومقابرنا أيضًـا ؟ ثم ماذا اجترح أبنـاء الشعب الكويتي من آثام حتي يجدوا أنفـسهم ، دون سابق إنذار ، متـسولين على أرصفة المدن الأجنبية ، بعـدما تحولت الدنانير القليلة الباقية في جيـوبهم إلى نفايات ماذا فعل الكويتيون حتى يحل دمهم وتهان كرامتهم ، وتنهك حرمة بيوتهم ؟ هل هذا هو ثمن عروبتهم ونخوتهم وعطائهم ، والتزامهم القومي ؟؟» .

لقـد كتـبت الشـاعرة المقـالات التي تضـمنهـا كتـاب (هل

**تسمحون لي أن أحب وطني**) وهي على فوهة بركان ، فكان لها طعم الحريق ، وكذلك فعلت في ديوانها (**برقيات عاجلة إلى وطني**) ، فقد كتبت قصائده والحزن الكبير يعتصر أعماقها ، وألسنة النار تتصاعد في صدرها ، فارتفعت قصائده إلى مستوي الحدث ، وولدت بحجم المأساة والخراب والدمار والحرائق التي أشعلها الغزو العراقي .

إن العاطفة الوطنية تتضاعف وتصل إلى الذروة في وقت المحن ، وحين تتعرض الأوطان للأخطار فشوقي كتب أعظم قصائده الوطنية أيام الاحتلال البريطاني وكذلك فعل حافظ إبراهيم وغيره من الشعراء . وتمتد هذه الظاهرة إلى الوطن العربي كله ، فأعظم ما كتبه محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وأمثالهم هو شعر المقاومة وحسبنا أن نشير كذلك إلى الشعر الوطني الحماسي الذي كتبه أبو القاسم الشابي في تونس والزهاوي والجواهري في العراق وعمر أبو ريشة في سوريا وقس على هؤلاء في الأقطار العربية الأخرى .

وقد جاءت مأساة الغزو العراقي للكويت لتصل بالعاطفة الوطنية عند سعاد الصباح إلى الذروة ، فقد أصبحت أكثر تشبثًا بالوطن والأرض ، وأكثر تمسكًا بالتراب الوطني ، وأكثر حُبًا لكل شبر فيه ، تقول :

نحن باقون هنا ..

نحن باقون هنا ..

هذه الأرض من الماء إلى الماء .. لنا

ومن القلب إلى القلب .. لنا

ومن الآه إلى الآه .. لنا

كلَّ دبوسٍ إذا أدمى بلادي

هو في قلبي أنا

وفي وقت المحنة تكبر صورة الوطن وتتسع لتصير بحجم الكون كله .. ويزداد توحد الإنسان بأرضه ، وهذا ما تعبر عنه الشاعرة حين تقول :

هذه الأرض التي تُدعى الكويت

نحن معجونون في ذرَّاتها

نحن هذا اللؤلؤ المخبوء في أعماقها

نحن هذا البلحُ الأحمرُ في نخلاتها

نحن هذا القمر الغافي على شرفاتها

هذه الأرض التي تُدعي الكويت ..

هي عطر مبحر في دمنا

ومنارات أضاءت غدنا
وهي قلب آخر في قلبنا
الكويتيون باقون هنا
الكويتيون باقون هنا
وجميع العرب الأشراف باقون هنا
الكويتيون باسم الله .. باسم السيفِ
باسم الأرض ، والأطفال ، والتاريخِ
باقون هنا
نلثم الثغر الذي يلثمنا
نقطع الكفَّ التي تضربنا .

وفي قصيدة (**سوف نبقى غاضبين**) تعبر الشاعرة عن روح التحدي والصمود والمقاومة ، فسيظل الشعب الكويتي صامدًا ، وسيبقى واقفًا كالشجر ، غاضبًا كالأمواج ، وتؤكد في خطابها الشعري الغاضب عدة معانٍ ، منها رفض الشعب الكويتي بأسره هذا العدوان الغاشم ووقوفه صفًا واحدًا لمواجهة هذا الخطر الداهم ، وتصميمه على دحر العدوان ، والتأكيد على أن القوة الغاشمة لا تنتصر في غياب الحق ، ولا يمكن للدبابة أو الآلة الحربية الظالمة أن تجري حوارًا أو تغتال حرية شعب ، تقول :

سوف نبقي واقفين
مثل كُلِّ الشجر العالي ، سنبقي واقفين
سوف نبقى عاضبين
مثلما الأمواج فى البحر الكويتى .. سنبقى غاضبين
أبداً .. لن تسرقوا منا النهارا
أيها الآتون في الفجر على دبابةٍ
من رأي دبَّابة تجري حوارا ؟
أبداً .. لن تجدوا في وطني
نجمة واحدة ترشدكم
نخلة واحدة تذكركم
طفلة واحدة تشكركم
ربما حطمتمُ أبوابنا
ربما روَّعتم أطفالنا
ربما هدَّمتم البيت الكويتيَّ
جداراً .. فجدارا ..
غير أنا سوف نبقى ..

مثلما الأشجار تبقى
مثلما الأنهار ، والغابات ، والوديان ،
والأنجم تبقى ..
مثلما حرية الإنسان تبقى
فاسحبوا خنجركم من لحمنا
وأعيدوا لؤلؤ البحر إلينا والمحارا
وارجعوا من حيث جئتم
نحن قوم نرفض القهر كباراً وصغارا
حيث تمشون على أرض الكويت
سيصير الرمل جمراً
ويصير البحر ناراً

وتتوجه الشاعرة بخطابها الشعري إلى المعتدي الغازي ، أو «الجار» الذي بث الرعب في قلوب الأبرياء ، نسوةً وأطفالاً ، وتؤكد في حوارها الحضاري أن ما ارتكبه هذا «الجار» من قتل وترويع واغتصاب للوطن الكويتي ليس انتصاراً أو ملحمة كبرى كما يدعي وكما تروّج أجهزته الإعلامية وإنما هو انتحار سياسي ونكبة قومية كبرى قضت على آمال العرب في الوحدة ومواجهة الخطر الصهيوني . وتنبعث المرارة ويتضاعف الجرح من خلال

المفارقـة المؤلمة ، فهذا «الجار» الذي هدم البـيـوت ، كانت له دور عامرة بالمحبة في قلب الشـاعرة وقلوب الكويتين . لقد وقفوا إلى جانبه في الشـدّة ، وكانوا سنداً له في حروبه ، وكانـوا بدعمهم وتأييدهـم وراء ما حقـقه من نصـر ، فكافأهم باحتـلال وطنهـم وهدم بيوتهم وتشـريدهم . إنها مغامرة سـياسية مـجنونة أفقدت الناس صوابهم ، وأصـابتهم بالذهول وأفـضت بهم إلى حالة من الإنكسـار والقهر وخيبة الأمل :

أيها الجارُ الذي كان مع الأيام جارا
يا الذي روَّعت آلاف المها
إنَّ قتل الكحل في العينين ، لا يدعي انتصاراً
إن ما سميته ملحمة كبرى ،
أسميه انتحاراً
أيها الجارُ الذي هدَّم داري
وأنا عمَّرتُ في قلبي له ركنًا وداراً ..
إنني مكسورة .. مقهورة .. ذاهلة ..
تقذف الخيبة أحلامي يمينًا ويساراً ..
يا الذي أهديته الماء .. وأهداني الصحاري

يا الذي أهديته الأفق . وأهداني الحصارا

يا الذي أهديته نصراً من الله ..

وأهداني احتلالاً .. وانكساراً ..

يا الذي أحرق أسراب العصافير ..

وما قدَّمَ للريش اعتذارا

لا تؤاخذني ، إذا جُنَّ جنوني

أنت لم تترك لإنسانٍ خيارا

ويحتشد خطاب الشاعرة بغابة من الأسئلة التي تحاكم الجار المعتدي وتدينه وتكشف أطماعه ، فما الذي اقترفه الشعب الكويتي حتي تستباح أرضه وممتلكاته ؟ ومن الرابح والخاسر في هذه المقامرة غير المحسوبة ؟ وبأي حقٍّ يغمد العربيُّ السيف في صدر أخيه ؟ وما جدوي الحلم العربي إذا كان الأشقاء يذبحون أشقاءهم ؟ وتتقاطر الأسئلة في مرارة لتعبر عن واقع عبثي مجنونٍ، وتؤكد صدمة الشاعرة المناضلة . . الوحدوية في الواقع العربي :

أيها الماشون في الفجر على أجسادنا

إنني أسألكم ماذا اقترفنا ؟

هل كفرنا بمواثيق الهوي ، ذات يومٍ

هل كفرنا ؟

نحن في السراءِ كُنَّا معكمْ

نحن في الضراءِ كُنَّا معكمْ

فلماذا تزرعون السيف في خاصرتي ؟

ولماذا تستبيحون حِمي عائلتي ؟

ولماذا تزرعون الوطن الآمن موتًا ودمارًا ؟

أيها الماشون في الفجر على أشلائنا ..

ما الذي يُجدي صراخي ؟

ما الذي يُجدي كلامي ؟

وأنا مسحوقة حتى عظامي

من ترى يسمع صوتي ؟

وأنا مدفونة تحت الرُّكام

عندما يطعنني في الظهر سيف عربيّ

يصبح التاريخ عارا ..

عندما يذبحني أبناءُ عمي في فراشي ..

يُصبح الحلمُ العروبيُّ .. غُبارًا

إن السؤال الذي يتفجر في عقل الشاعرة وفي قلبها كنهر من اللهب هو : من قتل الكويت ؟ فلا أحد يصدق أن القاتل عربيٌ ينتمي إلى العروبة والإسلام . إن قتلها أشبه بقتل وردة أو نخلة أو حمامة بلا سبب. إن قتل الكويت يعكس - في تصور الشاعرة - نزعة سادية في نفوسنا إلى الخراب ويعبر عن شهوة الأعراب إلى افتراس الأعراب ، إن ما حدث نتيجة لأخطاء الشعوب في تأليه الحكام وتجميل أخطائهم . إن قاتل الكويت لم يأت من غياهب المجهول . . فهو امتداد مرعب لفكر كربلاء «وعنف كربلاء» القاتل من منتجات أرضنا وفكرنا وعقدة السلطة في دمائنا . . إنه خلاصة لكل سيئاتنا . . ونحن الذين صنعناه لأن الشعوب المقهورة هى التي تصنع الطغاة وتصفق لهم . . إن ما حدث للكويت نتيجة لكل أخطائنا السياسية التي صنعت الأنظمة الفردية والديكتاتوريات الحاكمة . . هذا هو التصور الذي تطرحه الشاعرة وهي تقف على أطلال الوطن . . تقول :

**من حطَّمَ الكويت ؟**

**حطمها تلك الدكاكينُ التي تبيعنا الوحدة والقوميَّة**

**حطمها عصر من التلوث الخلقي والتفسخ القومي ..**

**والتلفيق ، والتصفيق ، والشراء ، والتصدير ، والتنظير ..**

**والكتابة الأميَّة ..**

حطمها الغرور والجنونُ ، والأنظمة الفرديةْ ..
وألف ألف حاكم بأمره ..
استبدل القرآن بالنازيَّةْ
ومرسلون ما لهم رسالة ..
وأنبياء ما لهم قضية ..
لم تسقط الكويت إلاعندما
تحول الفكر إلى زائدة دودية
وأصبحت أحرفنا من خشب
وأصبحت شفاهنا ثلجية
لم تسقط الكويت إلا عندما
تساقطت سنابلُ الحريّة
وأصبحت دبَّابة واحدة
قادرة على أن تمضغ القانون في دقائقٍ ..
وتأكل الشرعية

وتقف الشاعرة المناضلة بين الأنقاض والأطلال ، لتثبت الأمل في نفوس أهل الكويت ، وتؤكد ما يتصف به هذا الشعب من سماحة وعفوٍ ونبذ للعنف ، فتقول :

سوف نظل دائمًا ..
أهل الندى ، والعفو والسماح
لو جرحونا مرةً
نطلع كالأزهار من ذاكرة الجراح
أو كسروا جناحنا
كُنَّا لهم ،
أكثر من صدرٍ ، ومن جَنَاح
أو دخلوا بيوتنا
نطعمهم من خبزنا ، وتمرنا
نشركهم برزقنا
نحيطهم بحُبّنا ..
ونفرش الورود في موكبهم
وننثر الأقاح

إن أصحاب الحق والمؤمنين بعدالة قضيتهم لا يفقدون الأمل أو الثقة بالنصر ، وهذا ما تؤكده الشاعرة في قصيدة «سيرحل المغول» .. تقول :

سيرحلُ المغول

عن كل شبرٍ طاهر من أرضنا
سيرحلُ المغول
ويرجع البحر إلى مكانهِ
ويرجع النخل إلى مكانه
ويرجع الشعب الكويتيُّ إلى عُنوانهِ
وترجع الشطآن ، والأمواج ، والحقولْ
وتُشرق الشمس بكل بيتْ
وترجُع الكويت للكويت

إن ثقة الشاعرة بالنصر تنبع من إيمانها بحق الشعوب وحدها فى تقرير مصيرها ، وسيندحر الغزاة كما اندحر المغول ، وكما سقط الطغاة، فلا أحد يقدر على أن يطفئ نور الشمس أو يصادر الصباح . . وستبعث الكويت من رمادها كما ينبعث طائر الفينيق أو العنقاء من الرماد :

سنبعث الكويت من رمادها .. كطائر الفينيق
وتبدأ الرحلة من أوّلها ..
ويرفعُ القلوع سندبادْ
وينبتُ العشبُ على دفاتر الأولادْ

وتصرخ الأمواج في الخليج
حيَّ على الجهادْ ..
حيَّ على الجهادْ ..
لابُدَّ في نهاية المطافْ
أن يثأر المقتولُ من قاتله
وأن يدور الحبلُ حول رقبة الجلاَّد

وقد تحققت نبوءة الشاعرة ، فاندحر العدوان ، وانتصرت إرادة الله ، وتحررت الكويت بعد أن ظلت سبعة شهور في قبضة الغازي ، وتغنت الشاعرة بهذا النصر فقالت في قصيدة (نقوش على عباءة الكويت) :

أيا صباح النصر ، يا حبيبتي الكويت
أيتها العصفورة المائية ، الرائعة الألوان
بعد شهورٍ سبعةٍ في قبضة السجَّان
طلعت مثلَ وردةٍ بيضاء من دفاتر النسيان
فانتصرت سنبلةُ القمح على قاطعها
وانتصرت عصفورة الحُبِّ على صيادها
وانتصر اللهُ على الشيطان

وتتغني الشاعـرة بالوطن الجميل الذي استـعاد عافيتـه ، فقد كان الوطن جميلاً في زمن الأحـزان ، وكان نقيًا في زمن التلوث القومي والتذبذب الثوري ، وكانت الكويت كـبيرة النفس شامخة في زمن اللئام والأقزام ، وتنظر الشـاعرة إلى الوطن المحرَّر نظرة جديدة ، وتحـتضن بعـينيهـا كُلَّ مكان فـيه . . بل كل شـبر من ترابه . . فـالوطن كـالمولود الجديد الـذي يحيطه الجـمـيع بالحبِّ والحنان . . وتتعاظم صورة الوطن فـي عيون أبنائه . . فالمواطنون بلا وطن جـيش من الأيتام . . ومـسـافرون غـرباء ضائعـون ، وحمائم لا تستطيع الطيران والكلام . . وعصـافير مشردة لا تقدر على الغناء . . الإنسان بلا وطن كاليتـيم بلا أب ولا أم . . يفتقد الدفء والحب والسلام . . . ولا يعـرف الإنسان قيـمة الوطن إلا إذا افتقده . . وقد عاشت الشاعرة مـرارة «الفقد» سبعة شهور . . وكانت فرحتها بعودة الوطن أكبر من كل شيء .

* * * * *

# الحس القومى والوطنى
# فى شعر سعاد الصباح

أ. نجوى حسن

# الحس القومى والوطنى فى شعر سعاد الصباح

إن شعر سعاد الصباح القومي لا يقل إبداعًا - بأسلوب آخر ابتدعته أناملها - عن أى قائد معركة أو حاكم قد يدير دفة الحكم في ساحة الوغى. بالرغم من اختلاف الأوزان الشعرية والبحور استخدمت القوافي الموحدة لقصائدة عديدة وهذا ما جعلها تنأى عن استخدام البحور المركبة واستخدامها الأوزان التي يسهل على القارئ استيعابها والإحساس بها مثل الرمل ، والمتدارك والخفيف فهي بحور أكثر طواعية للحركة الشعرية . فهم الشاعرة الوحيد هو إيصال مضمونها الفكري ، وكشف الحقائق وإزالة الشوائب التي جثت فوق أقلام ونفوس أبناء الوطن .

هي لا تريد أن تقدم لنا قالبًا من الكلمات المركبة المعقدة بأوزان واحدة. كما يفعل بعض الشعراء الذين يسعون وراء الإنتاج الكمي محاطًا بالغموض والضبابية وتحتاج إلى مترجمين للوصول إلى الهدف الذي يبغيه الشاعر . ظنًا منهم بأنه أسلوب حضاري . غير مدركين أن الوحدة الفنية لا تتنافى مع الوضوح

والقدرة على نـقل المغزى المراد من القصـيدة إلى قلب وإحـساس القارئ . وغالبًا ما يكون وراء ذلـك الغموض . عدم القدرة على تطويع الكلمـة والمعنى والقافـية على إبداع خـلاق كمـا نراه عند الشاعـرة سعاد الصبـاح . وهذا ما يجعل القارئ يمل قـراءة مثل تلك الأشعـار وإن كانت في قـالب مسـبوك مقـفى وسرعـان ما ينبذها.

سُئِلت الشاعـرة سعـاد الصبـاح في إحدي المجـلات . من أنت... ؟ مـا رؤيتك للحيـاة والفن ؟ ومـاذا يعكس الشـعـر والإبداع منكِ ؟ فأجابت :

«أنا امرأة عربية خليجـية ، تحاول بالكلمة وبالسلوك أن تسهم في إسعاد الإنسان ، وزرع بذرة حب صغيرة في أرض البشر . إن حلمي منذ طفولتي هو أن أكـون جدولاً صغيراً يـفيض في فصل الربيع ، ويسـقي الأعشاب والأزهار ، والنبـاتات الصغـيرة التي تتجمع على ضفافه» .

لم تكن الشاعرة جدولاً في فصل الربيع فحسب . بل كانت جدولاً في فصل الخريف غـزير التدفق كثير التشـعبات ، انبجس من قلب الصـحراء لـيروي النفـوس الظامـئة للحيـاة والفاقـدة للشرايين، لذلك تدفق شعرها القومي ندى الألفاظ مشتعل المعاني لاهب الوقع يثير في النفس غيرة عمياء للدفاع عن كل حبة تراب

وطنية وقومية ويحرك كل العـواطف السامية للتشبث بأرض واسم الوطن . فيتحول كل مواطن إلى دبابة ومدفع وكل طفل إلى قنبلة تنفجر في يد من يلامس موطئ قدمه .

بدأت قصائد الحس القـومي عند الشاعرة سعـاد الصباح منذ عام ١٩٧١، فـيه تجسـيد للجـذور القوميـة الأصيلة ، فـيه نداء لصحوة الضمير الذي ران عليه الثبات من تدفق الذهب الأسود ، فيـه وخزة للحضّ على الجهاد وترك الـتواكل والكسل ، فالقيـمة الحقـيقيـة للإنسان هي بما يُنتجـه ويصنعه ، هى بارتبـاطه بجذور أرضه وأعمـاق وطنه . بما يقدمه لوطنه من تضـحيات وإبداع وبما يُسـهم به في بناء الوطن ودفع عـجلته لمصـاف الدول الأرقى في التقدم والازدهار . . وليس الافتخار والتمـتع بما وهبته له الطبيعة في أرض الوطن . فهبة الله لم تكن مجالاً للفخر إلا إذا استغلها الإنسان بالشكل الأمثل وحـافظ عليها من الضياع والاغـتصاب . من هنا يبـرز دور الإنسان في الحفـاظ على شخصـيتـه من خلال قوميته ووطنه ومقدار ما يقدمه للاثنين :

**في بلادي ... في معاني أرض أجدادي الجميلة**
**في البوادي ... بعد أجيال من الصفو طويلة**
**ذات يوم هبط الساحر من ماء السماء**

فكسا بالذهب الأسود أرض الصحراء
ورآهم القوم ... واستغرقهم هذا البريق
فتناسوا أنهم جاؤوا من البيت العتيق
إنهم جاؤوا وفي جعبتهم خير عتاد
من تقاليد ، وأخلاق ، وحب للجهاد
وتناسوا لقمة العيش يذكيها العرق
يا لأجدادي .. وكم أودى بهم طول الطريق
في سبيل المجد ، ما بين شهيد وغريق
يا لهم ، واللؤلؤ المكنون في جوف البحار

إبحار في جذور المجد والعزة والعمل الدؤوب وما عاناه الأجداد حتى وصلوا إلى قمة السعادة التي غمرتهم ، أما الأحفاد الذين ظهر لهم الذهب الأسود حولهم إلى تابعين للمال عبيد منفذين لرغبات جمة قوامها الإستكانة والخنوع والكسل والتسلط . ضياع للشهامة التي كانت توقظ نار الغيرة فيدافع الكبير عن الصغير والقوي عن الضعيف . وكان الجميع يدًا واحدة وروحًا واحدة في جسد واحد (أي أرض ووطن واحد) نداء من الشاعرة ووخزة لذاك الضمير الذي استكان ولتلك المروءة التي رقدت تحت

بريق الذهب الذي جاء هبة من الله . لكنه سبب في فشل الجيل الجديد لطلب العمل والمثابرة على أصالة جذور الأجداد لتتابع ذاك النداء .

لم يزل يسأل عنهم ، كل ليل ونهار
لم يزل في شعب المرجان حبًا دفين
في قرار لم تطأه قدمٌ منذ سنين
هاتفًا : ماذا دهاكم يا بني الجيل الجديد ؟..
فقنعتم بالرغيفِ والسهل والعيش البليد
وقعدتم عن طلابي ، وزهدتم في حياضي
أترون الذهب الأسود أصفى من بياضي ؟.
في بلادي .. من مغاني أرض أجدادي الجميلة
لي حكايات ، وآيات ، وأبيات طويلة
سوف يروي سرّها الأطفال للأجيال عني
وعن اللؤلؤ والمرجان في العهد الأغن
وعن الغواص لا يعرف ما لون الهموم
وهو يهوي في دجى البحر ويصطادُ النجوم

ليسويها عقوداً في صدور الغانيات
تملأ الأيام نوراً وتُضيء الذكريات
هكذا ينتحر الخير وتبقى الذكريات
يا زمان اللؤلؤ الحر ... زمان الحُرِّ فات

حسرة ولوعة من الشاعرة على ضياع الخير وتقاعس الجيل . تضم صوتها لصوت اللؤلؤ الأبيض الذي يجثو في هدوء بين حبات الرمال في قاع البحر . ينتظر من سيغوص إليه ويسوغ منه قلادة لعنق الحبيبة ، من سيوقظه من غفوة الزمان الذي نسيه تحت الماء . من ؟ ومن ؟ بعد أن تبخر الحب في أتون المال المتدفق من البترول . وتلاشت الأحلام في ظل الواقع الرغيد والرفاهية العمياء . لكن الشاعرة لم تزل تتمسك بكل قوتها بجذور الأجداد النقية الشُجاعة . التي تسري بها دماء العزة والكرامة والمحبة الصادقة والأصالة وحب الأرض بكل ما فيها من خبرات وفلذات. وتحاول إعادة تلك الدماء للأجيال . ثم تعرض لهم تلك المآثر بعرض شيق بنّاء تحثهم من خلاله على العمل والجد والجهاد وحب الأرض والوطن. فهو ليس - بترول ومال - إنه أغلى من الأكباد وفيه الكثير الكثير من الدرر .

ثم تنتقل إلى قصيدة أخرى تصف فيها ألم الغربة عن

الوطن فـفـي الغربة مـوت بطئ تتحـول فيه ضـربات القلب إلى نـزف مـوجع . ويأس مـخـيف ، يعـشش الدمار فـــي النفس ويتحول إلـــى خـراب مهـجـور وتصـــبح كل الأشياء بلا لون ولا طعـم ولا حيـاة ، يموت الجمـال وتغرق الآمال والأحلام في بحر الدمـوع ، حتى أشيـاؤها ضاقت زرعًا بتلك الوحـدة القاتلة فطلبت النجدة بأن تعود للوطن الدافئ الحنون إذ تقول :

**سائحة أنا ... أجوب في الورى كل فضاء**

**ولي فؤاد نازف ... بعدك شلال دماء**

**والعنكبوت ناسج في داخلي بيت شقاء**

**حقيبتي مُرهقة تململت من العناء**

**وبهتت ألوانها وأصبحت بلا رواء**

**تسألني : متى نعود للحنان والوفاء ؟.**

ثم تتـابع في وصف البلد الذي أمـتـه ، كيف وجـدته بؤرة حارقة انعدمت فـيها الحياة فالغلاء خـانق والحرارة قاتلة . وأهلها أصنام يتـحركـون قُتِل الحب في نفـوسهم وجـفت الإنسانيـة من عروقهم وملت الربيع في حـياتهم فأصبحت جدباء صـحراء قاتلة قاحلـة . يلعب بها المال (الدولار) ويحـرك الأصنام على هواه . ويحولهم إلى عبيد أزلاء . لا يعرفون معنى الحياة . عشرون يومًا

في هذه البلد حسبتهم الشاعرة سنوات من السجن والموت البطئ. بعد أن اختنق الأمل ومات الرجاء وانعدم الجمال والحب والوداد والوفاء . كل هذه الأشياء افتقدتها الشاعرة لأنها تعيشها في وطنها الحبيب فالوطن الأم والروح والغذاء والدواء والسعادة والأمن والقوة والمتعة وعزة النفس وكل الحياة لتبقى مع الرحلة :

في بلد كأنه جهنم بلا هواء
كأنه يقبسُ من قلبي وقلبك اصطلاء
وأهله قلوبهم من كل الفةِ خواء
كأن في أعماقهم مجاهلاً من الشتاء
أعماهم الدولار عن معنى الحياة والغذاء
فأصبحوا شراذمًا من العبيد والإماء ..
عشرون يومًا ها هنا .. عواطفي بلا غذاء
أعيشها في غربتي بلا منى ولا رجاء
وأنتِ يا قاهرتي الحسناء ... يا أغلى دعاء ..
هل تشهدين أدمعي وتحملين لي الرثاء ؟..
هل تلمحين في قصائدي مآتم المساء ؟.
هنا الجبال الخضر في عيني سوداء الرداء

والمدن الرحبة تبدو لي كأنها خلاء

والبحر لا يجري ، ولا يخطر في مجراه ماء .

فكل شيء مائل الألوان ... مشلول الضياء

تعود للرومانسية في الحنين إلى أرض الوطن وفؤاد الحبيب داخله . تعود لمفردات الطبيعة الزاخرة بالعطاء . تقطف الحلم من ضوء القمر ، وتتجرع الوحدة في صفاء السماء وقطاف الغرام . أتون تنصهر فيه لواعج الشوق والحنين ثم تتطاير عبر الأثير تحمل كل معاني الحب والأشواق .

تعانق الليل ، تسامر السحر ، تقطف من همسات الورود أرق كلمات الغزل ، تحيك منها أحرفًا من لهب الوجد الذي يضطرم في الغربة عن الحبيب والوطن . صورة فاتنة لحب عارم وحنين قاتل ولهبٌ يذيب الحجر ويؤجج المشاعر والأشواق في نفس القارئ فيشعر بالنشوة وينفعل ويتفاعل مع الموقف :

ويصحو على الأفق ضوء القمر

وتُزهي السماء بأغلى الدرر

وتصفو الحياة لأهل الهوى

ويحلو لهم في الليالي السهر

ويهتاجني الشوق في وحدتي
فأبكي ، وأنت بعيد السفر
على وحدتي في بلاد الشمال
بلاد الضباب .. بلاد المطر
أظل أناجيك في غربتي
إلى أن يطل شعاع السحر
ويشدو فؤادي بشعر الحنين
ولولا الهوى ما شدا .. ولا شَعَرْ
أتسمعني أقطف الكلمات
لنجوك من همسات الزهر
وفي خافقي موقد من هواك
يثور ويرقص فيه الشرر
تسابق أشواقي أحرفي
بشجو يفتت قلب الحجر
غداً يا حبيبي أعود إليك
ونجني المنى تحت ضوء القمر

بتلك القصيدة جذوة من اللهب أوقدتها الكلمات والتعابير والتراكيب فأحرقت الورق ثم نسجت سدة للحب والحنين من شرايين ودم ، لنعد إلى التراكيب (يصحو الأفق ، تزهى السماء ، تصفو الحياة ، يحلو السهر، بعدها يجتاحني الشوق ، فأبكي على وحدتي ، أظل أناجيك ، يطل شعاع السحر ، يشدو فؤادي، أتسمعني أقطف الكلمات ، همسات الزهر ، في خافقي موقده يثور ويرقص ، تسابق أشواقي أحرفي ، يشجو يفتت قلب الحجر) - انعدام للحياة بعيداً عن الوطن والحبيب . بعيداً عن الحب والألفة، فالحياة بكل ما فيها حب وهوية يشترك فيها ثلاثة: الوطن ، والرجل والمرأة .

لم يقتصر إحساسها القومي على زمن الإجتياح العراقي بل سبقت ذلك بالفطرة والنظرة الثاقبة والرؤيا والتحليل المنطقي للأمور التي تجري على الساحة العربية وقد برز الحس القومي منذ عام 1980 . وأود أن أذكر قصيدة (ارفعي المشعل) من ديوان إليك يا ولدي عام 1982 أي قبل الاجتياح العراقي لأبرز للقارئ مدى بعد النظر والاستقراء الذي تتمتع به الشاعرة سعاد الصباح . فها هي تصور لنا مدى التدخل الأجنبي الذي يسري ضمن أوردة الكسل والخنوع والتواكل الذي يلف أبناء الكويت ونومهم في ثبات الغفلة لنبق معها وهي تجند الحس الوطني لإيقاظ الغافلين:

كلما عدت أراني ، في حمى أهلي غريبة .
وهم مثلي أغراب ... على أرض سليبة
نحن أمسينا مع الأغنام في أرض بلادي
والكلاب السود ترعى ، والخنازير تنادي
ربما تأكلنا يومًا ... وباسم المدينة .
يسقط الوعي ... ويغدو الشعب للغازي ضحية
سيقولون : هنا ... كانت .. كويت وإمارة ..
رفعت في البحر ، قبل البر ، أعلام الحضارة
شقت الريح ، وأجرت في المحيطات السفينة
قبل أن ينشأ ملك ، وملوك ، ومدينة
ثم غرّتهم أباطيل الحضارات الجديدة .
فتناسوا أنهم إرث التقاليد القيدة ...

لم تكن معركة العراق قد بدت في الأفق . فقد كان العراق ابن الكويت المدلل والأمل المنشود والساعد القوي للكويت . لكنها قرأت الدلالات التي تجري على الساحة العربية ، استقرأت فصول التمثيلية قبل أحداث لبنان ، وشعرت بإحساسها المرهف وعبقريتها الفذة أنّ الفصور نفسها تتوالى على أرض الكويت

فأطلقت صرخة دوت في قومها علها توقظ النيام . وتحرك الجماد رغم معرفتها الأكيدة بأنها تنادي في واد وتنفخ في قربة مقطوعة . . فهم صم لا يسمعون ومقيدون لا يتحركون لنتابع :

**إنهضوا .. لا النار والبترول في أيدٍ أمينة**

**لا ... ولا أنتم على وعي بأطماع دفينة**

**واجعلوا أيديكم درعًا على الحق أمينة**

**يا كويت ، يا بلادي ، يا حياتي ، يا مصيري**

**ها أنا أشعر أني ، ضلّ في الأرض مسيري**

**فخذي العبرة مني ... وامسحي زيف الدهان**

**وأفيقي للعوالي ، «قبل أن يمضي الأوان»**

لم يكن بحسبان أي إنسان وحتى الشاعرة بأن ما أصاب الكويت في 1990 .

لكن قصيدتها تتحول إلى واقع حقيقي وكأن القصيدة كُتبت بعد أحداث الإجتياح . هذا ما يؤكد على أن الشاعر يرى ويحلل بأعين غير التي يرى فيها بقية الناس . هذا من جهة ومن جهة أخرى يؤكد أن الأدب الوطني هو مرآة صادقة تعكس للجماهير أدق خلايا الوطن وإحساسًا عميقًا يحسه الشاعر أو الكاتب قبل وقوع الخطر .

لذلك نرى أن الشاعرة الصباح كانت أكثر يقظة واستشعارًا بآلية الخطر فرسمت دوائر سوداء حول نقاط الضعف عند أهل الكويت ونفخت روح الحماس في الشباب الصاعد تحثهم على السير في ركب الحضارة قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم ولا تُسمع فيه الآهات . عودة إلى الجذور المتينة القوية وإنطلاقة ثابتة نحو الصعود والتقدم :

**هذه الأيام ... لا تعرف معنى للسبات**

**والذي يغفل ، تطويه رياح الذكريات**

**حركي فيك الشباب الحر ... نحو الأمنيات**

**ليس في الدنيا ثبات ... بل حياة أو ممات**

**إرجعي ماضيك الخالد ، حلو النغمات**

**وارفعي في العرب المشعل .. تحلو الأمسيات ..**

في قصيدة فتنة في 1982 تصور الشاعرة صورًا ومعاني لأحداث الإجتياح . ثم تضخم الصورة لتبدو مخيفة مرعية ويدب الهلع في قلوب أبناء الوطن ليهبوا إلى اليقظة ويقوموا من السبات تتساءل من عمق الصراع وبشفافية مذهلة : كيف تسرب إلينا الطغاة ، وبدؤوا يعيثون فسادًا ويتحللون بُؤرًا فاسدة وأنتم خاضعون لهم مهيضو الجناح . كيف طمعت الفئة البغية بخيرات

وثروات ومواقع الوطن العـربي ككل بشكل عام والكويت بشكل خاص . ثم يبرز بعدٌ آخر للقصيدة إذا وضعت في زمن الكارثة. إنها تجسد الأصالة والتـراث العريق الشجاع الذي لا تقتله المحن، ولا يصهره الزمن ، إنها سلاح آخر لتـوحيد الدم العربي والليالي الجميلة، والأحـداث الملأى بالخير والعافيـة زمن الأجداد وركوب الأمواج العاتية :

**فهذا الحمى درة للخليج**

**وتاج على رأسه العالية**

**فصونوه من عثرات النفوس**

**ومن طمع الفئة الباغية .**

إذن القصـيدة كانت قـبل وقوع الحدث . لـكن أحداث لبنان كانت الواقع والمؤشـر لنفس الشاعرة فقد آلمهـا لبنان الجريح الذي يئن بالألم ويغـرق يومًا بعـد يوم بالدماء والفتن والرعـب والحزن تأكله نيـران الطاغـية الطامـعين وتتلذذ بشـواء أهله بنار التـفرقـة والانتقام لنتابع :

**أيا وطني ... أنا في غربتي ...**

**أحن إلى أرضك النائية**

**أراها على البعد طيّ الفؤاد**

كأنك ما بين أحضانيه ..

وأبكي .. وأجزع .. خوفًا عليك

من الفتنة المرة الطاغية ..

فمأساة لبنان لم تزل

تلوح بألوانها القانية

فإياك إياك ... أن يخدعوك

وأن يدفعوك إلى الهاوية ...

ثم تنتقل الشاعرة بعد الإجتياح المرعب اللئيم الفظ القذر الذي ظهر لهم في أبشع وأشنع الصور بين ليلة وضُحاها . خرج لهم العملاق الطفل المدلل . كشر عن أنياب الخداع والطمع واستيقظ النائمون الغافلون في أرائك الحرير على بشاعة الموقف وهم يظنون أنه كابوس وحسب . أين كانوا حين صموا آذانهم عن سماع الحق بصرخات الشاعرة . وطمسوا أعينهم عن رؤية آلام الآخرين . وتحليل الواقع الذي يلف العالم العربي.

لقد حملت صرخاتها كل معاني القوة والأصالة ، وجرأة التحليل والطرح ، وصوت الحق لاحتمالات المستقبل ، ومعنى التقدم والحضارة ، وترك التواكل والكسل ، واحترام النفس البشرية بالجد والعمل ، جاء صوتها من عمق التاريخ ليفتح ثغرة

أمل في جدار الحاضر الأصم ، الجدار الأسمنتي الذي ربض فوق عقول وقلوب الناس أبناء وطنها . . إنها لا تملك إلا سلاح الكلمة وصوتها المبحوح لكنها لم تيأس ولم تتوان ولم تضعف . بل جاءت قصائدها العديدة مشحونة بالقومية والوطنية تارة وبالتمجيد والتباهي بالأجداد تارة أخرى . وإلقاء الضوء على الماضي القديم المضيء . والحاضر الفاسد المتواكل . فنراها في قصيدة (جسمي نخلة تشرب من شط العرب) تصنع من الكلمة وسادة هناء وسعادة الماضي. وطلقة بندقية ، وحد سيف بتار ، وهذه أرضية تجوب العالم لكن ضمن أسلوب الرومانسية التي هي من خصائص الشوق والحنين والهيام في زمن الهدوء والأمان . وهي ملحمة ثورية تحمل في طياتها حد سيف بتّار توقظ النيام وتفرش المذاق المر ضمن لحن يدخل إلى الآذان الصم والقلوب المتحجرة . دون أن يثير أي ألم أو إزعاج تحاول إيقاظ الشعور بكل حنان الكلمة وسمو الرومانسية لتبقى مع جسم النخلة :

**إنني بنت الكويت**

**بنت هذا الشاطئ النائم فوق الرمل**

**كالظبي الجميل**

**في عيوني تتلاقى .**

**أنجم الليل ، وأشجار النخيل**

من هنا ... أبحر أجدادي جميعًا

ثم عادوا ... يحملون المستحيل

بعد إضاءات التاريخ عن الأجداد تتساءل الشاعرة بلغة التعجب وإقرار الواقع الأصيل . ثم تصرّ على ذاك الإنتماء الذي لن تتخلى عنه ولو عم الخراب . إن الأمل سيشرق من تحت الأنقاض البالية طالما تحتها بذور حية عريقة :

هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب ؟.

وإن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب

وعلى صفحة نفسي ارتسمت

كل أخطاء ، وأحزان ، وآمال ، العرب .

سوف أبقى دائمًا

أنتظر المهدي يأتينا

وفي عينيه عصفور يغني

وقمر

وتباشير مطر ...

سوف أبقى دائمًا

أبحث عن صفصافة عن نجمة

عن جنة خلف السراب

سوف أبقى دائمًا

أنتظر الورد الذي

يطلع من تحت الخراب

نرى في هذه القصيدة أن الشاعرة لم تزل تستعمل مفردات الطبيعة وتحولها إلى معاني وهاجة في خدمة الوطنية والقومية والأصالة وقد استعملتها في إيقاظ الحس القومي كما تستعملها في زمن الهدوء والسلم والحب . فالشاطئ النائم والظبي الجميل، وفي العيون تتلاقى أنجم الليل وأشجار النخيل ، جسمي نخلة تشرب من بحر العرب ، أنتظر المهدي أنتظر الورد من تحت الخراب . كلها تعابير ذات مدلول ومعنى يدل على الأصالة والثبات والقوة . والأمل الذي سيبرق من تحت الخراب الذي توقعته الشاعرة من جراء انبثاق البترول الأسود وحرض على الكسل وتلبد الأذهان لنبق معها وهي تصف لنا حالة الخنوع الذي ران على عقول الناس من البترول ، ليس البترول الذي هو هبة الله هو الحضارة والتقدم ، وليس المال هو الذي يصنع الإنسان والثقافة . ثم توجه الآن نقمتها العارمة ، وثورة غضبها على الشعراء والأمراء ، والحكام فتتساءل قبل أن يضيق السؤال :

**يا زمان القبح .. من أين يجئ المبدعون ؟..**

في بلادي
وعلى أي صليب من دموع يولدون
إعطني شبرا من الأرض يسمى وطنًا
ما به مشنقة .. أو مخبرون
إعطني شبرا من الأرض يسمى وطنًا
لا تغطيه المنافي والسجون
وصل السيف إلى الحلق
وما زال لدينا شعراء يكتبون
وصل السل إلى العظم
وما زال لدينا شعراء يكذبون
ويقولون على الأوراق ، ما لا يفعلون ..

إنها شاعرة متميزة مـيزتها الجرأة في طرح القضايا القوميـة . ميزتها أنها أم الإنسانـية رغم إنها من العائلة الملكية رغـم ذلك لم تنفـرد عن مشـاكل المجتمع لم تشـعر يومًا إنهـا ذات مكانة تفوح منهـا العنجهـية والارسـتقـراطيـة . على عكس بعض الشعـراء المنحدرين من طبقات ارستقراطية أو غيرها . الذين لم يكن همهم أحداث الوطن وما يجري فيه وحـوله . بل كانوا يكرسون الشعر

لتكريس الواقع بعاداته وشوائبه والمحافظة عليه . حيث أنهم يعتبرون الثورة قلبًا للأصول وقضاء على الهدوء والرتابة في حين ترى سعاد الصباح الكلمة أمضى سلاحًا ، وأقوى دفاعًا ، وأكثر ضياء فالكلمة التي تعري الحقائق كلمة حق والحق لابد أن ينتصر ، ثم تعطي الحماس إذ تدخل إلى الشرايين مع نبض القلب وتثير الانفعالات الإنسانية فإما تثير الغيرة للدفاع عن الكرامة ، أو تثير الثورة فيهب المرء للذود عن حياض الوطن وهكذا . إنها دائمًا المرآة الناصعة إذا كانت جريئة صادقة ، عميقة، منفعلة ، منطقية ، إنسانية تنسى الأنا وتتكلم بالجمع ، وإذا فصّلنا القصيدة السابقة لرأينا كل هذه الصفات يا زمان القبح، أين المبدعون ، على أي صليب يولدون ، إعطني شبرًا يسمى وطنًا ، ما به مشنقة أو مخبرون ، لا تغطيه المنافي والسجون ، ما زال شعراء يكتبون ، وشعراء يكذبون . إن تلك الكلمات هي الصدق بحرفيته ، والجرأة بكل ما فيها والحق بكل أبعاده ، لماذا يتستر الشعراء على أخطاء الحكام ؟ وهم القادرون على إنارة الطريق ، وإيقاظ الغافلين . لقد أعمى البترول والمال أعين المسؤولون فأخذو ينامون ملء الجفون والطامعون يتغلغلون . أخذوا يبطشون بيد من حديد بأبناء وطنهم حتى ملؤوا السجون وأصبح كل أخ رقيبًا مخبرًا على أخيه مقابل حفنة من المال . الغزو الاستعماري ينمو ليسيطر على كل الخيرات وأصحاب

الخيـرات يتلهون في قـتل بعضـهم البعض إلى مـتى ؟ ومن أين سيولد المبدعون . أسئلة تسبق وقتها بأجيال لكن سرعان ما حدث ووقع مـا كانت تقـرأه الشاعـرة قبل وقـته بزمـان . هكذا يكون الشاعـر وهذا ما يفـعله ولتكن سعاد الـصباح قـدوة الحق والجرأة والإنسانية لكل الذين يحترفون لغة الشعر .

تعود الشاعـرة في قصيدة أخرى لفتح البـساط المخملي الذي عـاشه الأجـداد مليئًـا بالكرم والشـهامـة والقوة وعـزة النفس ، والهدوء والأمـان ، حيـاة ملؤها السعادة والحب ، مـلؤها الإيثار وحب الخيـر للناس أجمعين . تحفـها الإنسانيـة فيهرعـون لنجدة الضعفاء والمنكوبين ومساندة الفـقراء والمحتاجين من الإخوة العرب وغيرهم . إذن هي دعـوة تلح فيها على وجـدان الشعب الكويتي لتذكـره بالأصالة والعراقـة ليواصل التسـامح والعطاء وتزرع بذور الأمل بعـد الاجتـياح تلك البـذور التى افـتقـدوها في الرفاهيـة والنعيم. الآن سـيحتاجـون لإيقاظها من جديد بعـد تلك الجريمة الشنعاء إذ تقول :

كويت ... كويت ..
موانئ أبحر منها الزمانْ
وواحة حب وبر أمانْ
وشعب عظيم

ورب كريم
وأرض يسيّجها العنفوانْ
كويت .. كويت
شواطئ مصقولة كالمرايا
وبحر يُوزع كل صباحٍ علينا
ألوف الهدايا
ونايُ أبي
وابتسامة أمي
كويت ... كويت
أشيلُكِ ..
حيث ذهبت ، حجابًا بصدرى
أشيلك
برعم ورد ، بأعماق شعري
أشيلك
في القلب وشمًا عميقًا
لآخر أيام عمري

متابعة لنشر خيـرات الكويت ، ولتحدي الزمن ، ورومانسية الناس والطبيـعة ، صور خلابة لاغتـسال الشعر والنخـل في مياه الخليج ، تعـبـير عن الأصـالة في النخـل والعطاء والكرم وحب الطبيـعة والناس في الشعـر (يقطف نجمًا ويـزرع نخلاً ويخلق في لحظات التـحدي بلاد) أيضًـا لوحة تذكـارية تعيـد لابن الكويت وللعرب قوة الإرادة التي تفـعل المستحيل بتلك الكلمـات تتحدى الشاعرة كل مستحيل وكل عدوان مهما كان وأيًا كان :

كويت ... كويت ...

هنا وردة البحر قد أزهرت

وراح ابن ماجد

يقطف نجمًا ... ويزرع نخلاً

ويخلق في لحظات التحدي بلاد

هنا الشعر والنخل يغتسلان معًا

في مياه الخليج

كويت ... كويت ...

أحبك ... كالشمس تعطين ضوءك للعالمين

أحبك كالأرض

تعطين قمحك للجائعين

وتقتسمين الهموم مع الخائفين

وتقتسمين الجراح مع الثائرين .

ثم تتكلم عن سياسة الكويت بعد بوح من المحبة العارمة . فالكويت كانت ملاذ كل المحتاجين وموئل لكل العباقرة والمثقفين، ومنارة يهتدي بها كل الضائعين هكذا كانت وهكذا ستبقى كما تناديها الشاعرة التي هي جزء من تلك الأرض ومن عظمة تلك المحبة . فالتسامح كريم ومهما عظمت الشدائد يبقى الخير متأصلاً لا يتزعزع ولا يخبو ولن ينضب من جذور أهل الكويت وشمسها وقلبها الكبير الذي يحتضن كل محتاج ويسامح كل مخطئ :

كويت ... كويت ..

لحرية الرأي فيك تراث طويل

وطفل المحبة بين ذراعيك طفل جميل

وزرع العروبة فيك قديم ... قديم .

كهذا النخيل

فظلي كما كنت قلبًا كبيراً

ونجمًا مثيراً ...

وكوني المنارة للضائعين

وكوني الوسادة للمتعبين

وكوني كأية أم

تعانق أولادها أجمعين

تتابع الشاعـرة إصرارها الأكيد على التشـبث بكل حبة تراب في أرض الكويت وبكل نسمة عليلة تمر في سمـائها . تحبها بكل ما فيها بهدوئها وجمالها ، صخبها وعيائها ، تحبها حتى لو كانت فوهة بركـان يغلي . ومهمـا فعل فيهـا المتوحشـون الذين أشعلوا السماء والأرض وأحرقوا الذهب الأسود نتـيجة الحقد الذي يغلي في دمـائهم . والطمع والجـشع الذي انفـجر من كـيـانهم . . . ولذلك توحـد الشـعب الكـويتي وظهـر حـبـه للوطن والأرض والإخوة واستفاق أخيراً من كبوته لنتابع :

كويت ... كويت ..

أحب ابتسامتك الطيبة .

وإيقاع صوتك ... إذ تضحكين

أحبك صامتة .. متعبة ..

وأعماق عينيك إذ تحزنين

أحبك في غربتي وارتحالي ..

أحبك .. رغم حراب المغول

ورغم جيوش التتر

أحبك حين تكون السماء

مطرزة بالرعود ، ومثقوبة بالشرر

فكيف تصيرين أجمل عند اشتداد الخطر ..

ثم تتوالى الصور الرومانسية النازفة المتدفقة لتجسيد عملية اغتيال الوطن (الكويت) وصهره في بوتقة الاحتلال والاستعمار وكم الأفواه، فيبدو الوطن أكثر صلابة وأشد تماسكًا وإصرارًا وأقوى عزيمة وعنفوانًا . فقد كان يبدو أنه صيد سهل عظامه هشة، وأمواله كثيرة . لكن الغزاة اصطدموا بجبل من الألفة وسيول من الإنسانية شكلت جميعها سدًا منيعًا في وجه الطغاة الذين لم يحسبوا حسابًا للألفة والمؤالفة ، ولجيران الجنب والأخ البعيد الذين هبوا لمساندة الشقيقة الكويت . تقف الشاعرة لترسم لنا الإبتسامة الصافية فوق جراح تنزف الألم ، والقلوب المُحبة في أجساد غطاها الكسل لكنها لم تنس الأصول . ترسم لنا الشموخ والإباء والتحدي حتى لو كانوا كما قالت : (عصافير وطيور) أي يميلون للسلام لا حرب عندهم ولا فراغًا . ثم تعود لتفتح ذراع

الكويت وكل شبر فيها، ليعود للحنان ويضم كل الأحرار . فالحرية هي الإنسان ولا إنسان بلا حرية . لنراها ترسم :

كويت ... كويت ..

لقد قرر العالم العربي اغتيال الكلام

وقرر أيضًا

إبادة كل الطيور الجميلة ، كل الحمام

ونحن طيور مشردة لا تريد سوى حقها بالكلام

ونحن طيور مثقفة لا تُطيق

غسيل الدماغ .. وكسر العظام

ونحن حروف مقاتلة .

سوف تهزم بالشعر كل عصور الظلام

ويسعدني أن تظل بلادي

ملاذ العصافير من كل جنس

وبيت المغنّين والشعراء

ويسعدني أن يكون تراب بلادي

مزار البنفسج والشهداء

وسقفًا لمن تركتهم حروب العروبة دون غطاء

ويسعدني أن تظل بلادي جزيرة حرية رائعة

بها الفجر يطلع حين يشاء

بها البحر يهدر حين يشاء

ويسعدني أن تظل بلادي فضاءً رحيبًا

ونافذة نستنشق منها الهواء

فعصر المباحث صادر منا السماء

وأدخل للسجن ضوء القمر .

رغم قسوة الموقف وشدة الألم وكآبة صورة الاجتياح الهمجي فإن الأمل والإشراق يطل علينا من نوافذ وكلمات وتعابير الشاعرة. فصورة (جزيرة حرية رائعة ، الفجر يطلع حين يشاء ، والبحر ، قضاء رحيب ، نافذة للهواء) كل هذه النوافذ سيطرت على نهاية القصيدة لتعطي دلالات واضحة على انتصار قوانين الطبيعة وعلى كل من يحاول كبتها ووضعها في بوتقة مغلقة . انتصار للحرية التي هي من أهم قوانين الكون .

لننتقل إلى تفجير الثورة ، واندلاع التحدي ، بركان هادر يجرف بلا هوادة كل من يحاول الاقتراب من سياج الوطن ،

استبسال نادر ، هدير الحق يعلو فيصل أكباد السماء . الأرض لنا وكل حبة تراب في أرض الوطن هي مسام في أجساد أبنائه ، وكل قطرة ماء فيه هي قطرة دم تضج في قلوب شعبه . فهو الروح والجسد ، والملاذ والأمل والأم الحنون والأب الرؤوف ، إنه (الوطن) النَفَس الذي يدق في الصدور ، والحدقة للعيون ، إنه السقف والحجر والأرض والمطر أجزاء تشكلت منها أعضاء أبنائه . وإذا كان الشعراء الرومانسيون يعبرون عن مشاعرهم الجياشة وتأملاتهم الصوفية. بأدوات الطبيعة فإن الشاعرة سعاد الصباح استخدمت نفس الأداة ومزجتها في تراب الوطن والذات البشرية التي تحيا على أرضه ففاحت رائحة التراب دماء ذكية أبية وعاش الوطن في قلب كل مواطن كما يعيش المواطن في قلب الوطن لتبقى مع الإصرار والتحدي والشجاعة والتفاني ، مع الصدق والتضحية الذي صهر كل أبناء الوطن وجعله جسدًا واحدًا وروحًا واحدة :

نحن باقون هنا

هذه الأرض من الماء إلى الماء .. لنا

ومن القلب إلى القلب ... لنا

ومن الآه إلى الآه ... لنا

كل دبوس إذا أدمى بلادي

هو في قلبي أنا

نحن باقون هنا

هذه الأرض هي الأم التي ترضعنا

وهي الخيمة ، والمعطف ، والملجأ

والثوب الذي يسترنا

وهي السقف الذي نأوي إليه

وهي الصدر الذي يدفئنا

وهي الحرف الذي نكتبه

وهي الشعر الذي يكتبنا

كلّما هم أطلقوا سهمًا عليها

غاص في قلب أنا ..

إسألوا الشمس والسماء . والأرض والرمل والماء . إسألوا الكون والنخيل والقمح والشجر وضوء القمر ، كيف رعانا الله وهدانا الكويت ونحن تعلقنا بكل نسمة سرت في سمانا وبكل حبة رمل تدحرجت على شاطئنا فهي لنا ويعجز مخلوق على أخذ ما وهبه الله :

هذه الأرض التي تدعي الكويت
هبة الله إلينا
ورضاء الأب والأم علينا
كم زرعنا أرضها نخلاً وشعرًا
كم شردنا في بواديها صغارًا
ونخلنا رملها شبرًا فشبرًا
وعلى بللور عينيها جلسنا نتمرى
هذه الأرض التي تدعى الكويت
بيدر القمح الذي يطعمنا
نعمة الرب الذي كرمنا .

لعل الأرض هي الصورة المادية التي تجسد الوطن ودفء الشمس، والنخيل والطبيعة تجسد استمرار الحياة وبنيتها السكانية في هذه البقعة. حتى أنها تحولت إلى هوية كُتِبَت مع اسم وميلاد الشاعرة . وقلما نجد شاعرًا أو فنانًا لم يمتزج بتراب وطنه وقومه في جميع الظروف . لكن شاعرتنا امتزجت به حتى العظام بنعيمه وصفائه بقسوته ورخائه ، بإيجابياته وسلبياته ، اعتصرت من دمها لتداوي جراحه . وصلبت نفسها لتمسح آهاته فالأرض جزء لا

يتجزأ من شخصية الإنسان . لكنها قلب نابض وعين ثاقبة وروح شاردة في قلب وشخصية الشاعر . وقد تساعد المحن وتقلبات الزمن على صقل موهبة الشاعر إلا أن شاعرتنا قد صقلت الكلمة وأبدعت الحرف وأشعلت المعاني حبًا وهيامًا والتصاقًا بالأرض والوطن . كما اشتعل النفط في أرضه . لنتابع معها في معرفة أجزاء أخرى للكويت امتزجت بأهله تقول :

هذه الأرض التي تدعى الكويت

نحن معجونون في ذراتها ..

نحن هذا اللؤلؤ المخبوء في أعماقها

نحن هذا البلح الأحمر من نحلاتها

نحن هذا القمر الغافي في شرفاتها

هذه الأرض التي تدعى الكويت

هي عطر مُبخر في دمنا

ومنارات أضاءت غدنا

وهي قلب آخر من قلبنا

الكويتيون باقون هنا .

وجميع العرب الأشراف باقون هنا

الكويتيون باسم الله ... باسم السيف
باسم الأرض ، والأطفال ، والتاريخ
باقون هنا
نلثم الثغر الذي يلثمنا
نقطع الكف التي تقربنا .

تعلق بالأصل حتى الجذور إصرار على إبراز معادن السكان الكويتيين الداخلية . فهم اللؤلؤ المخبوء ، والتمر الأحمر ، والقمر الغافي ، كلها سمات اتصف بها أهل الكويت وقد كانوا وما يزالون منهل الخير والعطاء لكل الناس . ولكن صاعقة المحنة جعلت الشاعرة تختصر في عطائها ، وتحد من مرتادي ذاك النبع . فالغادر والحاقد والجبان لم يعد له مكان على أرض الكويت وجميع الأشراف الآخرين الذي تألموا لألم الكويت ، هم وحدهم سيبقون مع الشاعرة على أرضها الحبيبة . فالشعب لا يموت وإن تكالبت عليه يد الشر والبغي .

لم تنل شدة المأساة وهول المصاب من تصميم الشاعرة على الثورة والحث على الجهاد والحض على الانتقام . لا بل زاد هول الكارثة تأجج النار وفورة البركان فاتّقد العنفوان وعزة النفس والإباء وتحول كل طفل في الكويت إلى جبل شامخ وحربة

وسيف ، لا تطوله دبابة ولا تخترقه طلقة مدفع ، لا يكسره الزمان ولا تلويه المحن . صورة من الخيال تجسد لنا عناق المادة والروح في كل حي يعطي دلالات ومعاني يعجز القلم عن وصفها ويثير في نفس القارئ حرارة الحماس الذي يعانق روح الشاعرة المرهفة الحس ويبرز تلاحم وتماسك أبناء الوطن تجاه أي مصاب . وإزاء أي غدار أيًا كان ومهما كان . . . صورة جديدة وفريدة للتحدي الأبدي نسمعه من الشاعرة :

مثل كل الشجر العالي ، سنبقى واقفين
سوف نبقى غاضبين
مثلما الأمواج في البحر الكويتي سنبقى غاضبين
أبدًا لن تسرقوا منا النهار ..
أيها الآتون في الفجر على دبابة
من رأى دبابة تجري حوارا ؟.
أبدًا لن تجدوا في وطني
نجمة واحدة ترشدكم
نخلة واحدة تذكركم
طفلة واحدة تشكركم

ربما حطمتم أبوابنا .

ربما روعتم أطفالنا

ربما هدمتم البيت الكويتي

جداراً ... فجدارا

غير أنا سوف نبقى

مثلما الأشجار تبقى

مثلما الأنهار ، والغابات ، والوديان

والأنجم تبقى

مثلما حرية الإنسان تبقى

فاسحبوا خنجركم من لحمنا

وأعيدوا لؤلؤ البحر إلينا ... والمحارا

وارجعوا من حيث جئتم

عـزيمة جبـارة تتحـدى المستـحـيل ، تعانق المُحـال . تركب الأهوال لكنهـا لـن تنحني ولن تيـأس في تلـك اللوحـة تذكـرنا الشاعرة بألم الشـاعر الفلسطيني توفيق زياد الذي تحـدى الصهاينة والعالم بلغة المستحيل . إذ قال:

أهون ألف مره ...

أن تدخلوا الفيل بثقب إبره

وأن تصيدوا السمك المشوي في المجره

أن تحرثوا البحر

أن تنطقوا التمساح

أهون ألف مره

من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكرة

تحدٍ بليغ ، ثقة لا يزعزعها البشر كالتي تقولها شاعرتنا :

نحن قوم نرفض القهر

كباراً وصغاراً ..

حيث تمشون على أرض الكويت ...

سيصير الرمل حجراً

ويصير البحر ناراً ..

ثم يرقّ التحدي ويتحول إلى عتاب لتعطيه مدلول الإنتصار الحتمي ولتؤكد شناعة وفظاعة الاجتياح . وتُكشف عن نوايا الغدر التي أيقظها الحقد والحَسَد وحب المال . وأعمى الطمع عيون الأخ عن أخيه فاستباح أرضه وعرضه وماله إذ تقول :

أيها الجار الذي كان مع الأيام جارا

يالذي روعت آلاف المها

إن قتل الكحل في العينين ، لا يُدعى انتصارا

إن ما سميته ملحمة كبرى

أسميه انتحارًا ...

نحن في السراء كنا معكم

نحن في الضراء كنا معكم

فلماذا تزرعون السيف في خاصرتي ؟.

ولماذا تستبيحون حِمَى عائلتي ؟

ولماذا تملؤون الوطن الآمن موتًا ودمارًا ؟

أيها الماشون في الفجر على أجسادنا

إنني أسألكم ماذا اقترفنا ؟.

هل كفرنا بمواثيق الهوى ذات يوم ؟

هل كفرنا ؟

كل شيء في الحياة خاضع للتغيير والتبديل والتطوير إلا شيئًا واحدًا يحمل كل جزئيات الحياة وكل تفاصيلها الآنية ليشكل نفسه. إنه التاريخ: فهو جدول الزمن القادم من الغيب يمر بالحاضر ثم يحمل ثوانيه، أحداثه ، قضاياه فتوحاته ، غزواته ،

تقدمه ، وتطوره ، تخلفه ورجعيته . ليصب في بحر الماضي ويشكل شريط الحياة وجريان الأيام .

ولهذا فقد خلدت الشاعرة وصمة عار الغزو والاجتياح للكويت بأبشع أشكاله ، وأقذر أهدافه . وأشنع مواقفه . لتبقى درسًا للأجيال القادمة . وإحدى نماذج الغدر والحقد والهمجية التي سُطِرَت على أشرطة التاريخ منذ آلاف السنين .

صورة وحشية الأخ الذي يمزق جسد أخيه ، ويمشي على أشلاء الشيوخ والنساء والأطفال دون رادع من ضمير ، أو خوف من دين ، فالدين الإسلامي أكد وحض على التعاون ، والتكافل، والتضامن وخاصة بين الأخوة ، والأشقاء ، والأقرباء حتي إنه أوصى بالجار لدرجة أنه كاد أن يورثه . فكيف الأخ ؟ وهذا مما زاد من نار الغزو وقوة الصاعقة أن يأتي الإحتلال من الأخ والشقيق الذي كانت الكويت تربيه وتُعطيه وتمده في الحرب والسلم لتدّخره لحاجةٍ تستنجد به إزاء أي طارئٍ من غريب.

وهنا يتعاظم المُصاب ويشتد الخطب ، وتعم المصيبة حين يأتي الغدر من الأخ والشقيق وابن العم والجار الجنب ، والصديق . ولم يعد هناك ما اسمه عروبة أو انتماء لها . فقد أتلفها الطغيان وجرّحها الغدر وهشمها الطمع والتكالب على الأموال لنبق مع الشاعرة ورأيها :

أيها الماشون في الفجر على أشلائنا ..
ما الذي يُجدي صُراخي ؟.
ما الذي يُجدي كلامي ؟
وأنا مسحوقة حتى عظامي
من تُرى يسمع صوتي ؟
وأنا مدفونة تحت الرُّكام
عندما يطعنني في الظهر سيف عربيّ
يصبح التاريخ عارا ..
عندما يذبحني أبناءُ عمي
في فراشي ..
يُصبح الحلمُ العروبيُّ .. غُبارا

ثم يشرق الأمل في محيا صورها وتُضيء الكلمة بأحرف الإصرار على الحرية وتلاحم الشعب الكويتي وبعض الدول العربية والصديقة ضد الطغيان والاحتلال . ويرتفع الصوت عاليًا. منددًا ، مهددًا المغول والتتار هؤلاء الشعوب المتخلفة منذ أقدم العصور فقد كانوا ولم يزالوا رمزًا للوحشية والطغيان والهمجية والإلحاد . . فالنفس البشرية إن خلت من الإيمان تحولت إلى مثل هؤلاء :

سيرحل المغول ...

عن كل شبر طاهر من أرضنا

ويرجع البحر إلى مكانهِ

ويرجع النخل إلى مكانهِ

ويرجع الشعب الكويتي إلى عُنوانهِ ..

وترجع الشطآن ، والأمواج ، والحقول .

وتُشرق الشمس بكل بيت

وترجُع الكويت ... للكويت

سنغرق التتار في بحارنا

ونسترجع حقنا بالسيف ، والصمود ، والإصرار

إن الشعوب وحدها تُقدر الأقدار

لن يستطيعوا أبدًا

أن يغسلوا سيوفهم بالنفط .

إصرار بلا حدود ، دفاع مُستميت عن كل ذرة تراب في الكويت ، عودة إلى التذكير بالإسلام وعودة إلى صفحات التاريخ وجرائم الأسبقين تأكيدٌ على انتصار الشعوب وإحقاق الحق وقهر الظالمين والباغين مهما طالت بهم الأيام إذ تقول :

سنرفع المصحف في يميننا
ونرفع السيوف في شمالنا
ونهزم الغزاة مهما عربدوا ، واستكبروا
وأحرقوا ، ودمروا
لا يعرف التاريخ في مساره
طاغية لا تقهر

في قصيدة أخرى تشبه الشاعرة الاجتياح بالذباب كناية عن كثرة العدد والضعف والفوضى والغوغائية في الاجتياح ثم تصر على عدم مقدرتهم على طرد الكويتيين أو كسر إباء الشعب أو شطب أسمائهم أو سرقة دمائهم من عروقهم ، ولن يمنعوا تفتح الأزهار وتجدد الفصول وسترجع الكويت مهما امتدت الأيام ويرجع البحر لزرقته والفجر لحمرته، والطفل للعبته ، سترجع الكويت مهما امتد الزمن وأطبق الظلام . لم تترك الشاعرة وجهًا من أوجه الحياة إلا وسخرته للدفاع عن كل شبر من أرض الكويت لإعادة الحياة الآمنة ، وإعادة الحب إلى سماء الكويت وتختم القصيدة باستخدام كل العبارات والكلمات في الدفاع فتقول : ستقذفهم بالنار ، بالبروق ، بالزوابع ، بالغضب الكبير، بالقضبان ، بالأمواس ، بالفؤوس ، بالكؤوس بالكعوب ،

بالبراقع ، سوف نتبعهم من منزل إلى منزل . من شارع إلى شارع من عش صغير إلى عش حتى تعود الكويت للكويت وتدخل الشمس لكل بيت وتعود البسمة لكل ثغر.

رغم كآبة المحنة واشتداد ألمها بقي التفاؤل يعانق رومانسية الشاعرة ويضفي على الحزن بسمة الرجاء والأمل ، ويتراقص حلم الإنتصار فوق أشلاء النفوس المنهارة ليعيد إليها تدفق الحياة ويُخفف المصاب ويهدئ من روع الأحداث المتلاحقة . ويزيد في تجديد القصائد ، دون أن تقع في التكرار أو الرتابة المملة في السرد ، إنه تجديد في كل فكرة وكل كلمة وكل معنى ومرمى استمدت من عمق البحر عمقًا لكلماتها ومن ذراته تعدادها ومن صفائه نقاء سريرتها وصدق إحساسها ومن رحابة الصحراء مساحة خيالها الجامح ، ومن دفء الشمس حرارة ألفاظها ومن إغداق الأرض وكرم الطبيعة أصالة وتسامح وحب وإباء نفسها التي مثلت بها كل الشعب الكويتي الشقيق إذ تقول :

**أهل الندى والعفو ، والسماح**

**لو جرحونا مرة .**

**نطلع كالأزهار من ذاكرة الجراح**

**أو كسروا جناحنا**

**كنا لهم**

أكثر من صدر ومن جناح

أو دخلوا بيوتنا

نطعمهم من خبزنا ، وتمرنا

نُشركهم برزقنا

نحطيهم بحبنا

نحن الكويتيين . من عاداتنا

أن نجير الجار

أن ننبذ العنف

أن نرفض الظلم على أنواعه

ونكره الطغاة والطغيان

أن نعصر القلب لمن نحبهم

وأن نكون دائماً جانب الإنسان

ثم تتابع في عرض المنطق الإنساني وتفتح ملفات التاريخ ، تاريخ المستعمرين المحتلين لتستشهد بقدرة الأيام وقوة الطبيعة والحياة إذا لازمها الإصرار والتحدي والصبر والإيمان ، ولابد لصوت الحق أن يجلجل مهما كبته الباطل وحاق به الظلم ، كما الشمس وكما الصباح هذه دورة الحياة:

يا من زرعتم في ضلوع شعبي الرماح
كيف بوسع عاشق أن يرفع السلاح
في وجه من يحبهم
كيف بوسع العين أن تقاتل الأجفان
فلملموا خيولكم ... وانسحبوا
ولملموا أشياءكم وانصرفوا
لا أحد يقدرُ أن يُغيرَ التاريخ
أو يستعمر الأرواح
لا أحد يقدر أن يُطفئ الشمس
أو يصادر الصباح .

وهكذا تمتد ألسنة اللهب الحارق الذي تدافع به الشاعرة عن كلّ ذرة تراب وماء ، ليصل إلى شغاف القومية العربية . فتتساءل بكل العنف والجرأة والبسالة التي دافعت بها ، من ساهم في ذاك المصاب ، مصاب الاجتياح ، غير آبهة من تفردها بتلك الجرأة وما قد يُصيبها منها . تقول كلمة الحق مجردة عارية من أي زيف أمام أمواج الباطل والاستبداد والهمجية . فتسأل . من ؟..؟...

من قتل الكويت

يتفجر السؤال في عقلي ... وفي قلبي
كنهر من لهب ...
كيف تموت وردة بلا سبب ؟.
كيف تموت نخلة بلا سبب ؟.
هل أعجمي يا ترى قاتلها ؟.
أم عربي جاء من أرض العرب ؟
من ذبح الحمامة ؟ من قتل القصيدة .
من سرق الكويت ... والياقوت
من خواتم النساء ... من سرق التاريخ
واغتصب الزمان .. والمكان ..
والحياة ، والأحياء ..
من اقتلع الشعوب من مكانها ... وغير الوجوه
والعيون والأسماء ... هل نزعة سادية .
أم شهوة الأعراب ..
من حكم النخيل بالإعدام ... والقمر بالإعدام ...

في كل كلمة حرف يغلي وفوهة بركان تفور ، تتساءل والحزن

يجيش في فؤادها وألم الاغتصاب يمزق أحرفها النازفة لنعد إلى كلمات النص قليلاً (يتفجر السؤال ، كنهر من لهب ، كيف تموت وردة ونخلة بلا سبب، هل أعجمي ؟.. أم من أرض العرب ؟) . وكان أرحم لو كان أعجميًا ، من ذبح الحمام ، سرق الكويت ، قتل القصيدة ، سرق التاريخ، اغتصب الزمان والمكان ، اقتلع الشعوب ، والوجوه ، نزعة سادية، أم شهوة الأعراب .

كل الكلمات تعطي دلالات حتمية على القنص والوحشية والأمراض النفسية، فالسادية مرض خبيث إذا استفحل بالإنسان فكيف بالحاكم ؟... بعد كل تلك التساؤلات تنبري لتقول :

**لم يسقط القاتل من سحابة**

**لم يأت من غياهب المجهول**

**فهو امتداد مرعب لفكر كربلاء**

**وعنف كربلاء**

**ومقتل الحسين مغدوراً على رمال كربلاء**

**قاتلها من منتجات أرضنا**

**كالقمح ، والشعير ، والبقول**

**قاتلها ليس سوى مقامر**

سطا على عباءة الرسول ..

التاريخ يُعيد نفسه ، والسادية مرض بالوراثة كما الغدر والإجرام والتسلط كلها صفات تأصلت إلى حد بحكام سوّدوا صفحات التاريخ عبر الأجيال الماضية في العراق الشقيق القطر الذي ترعرع على أحضان الكويت وشب وقوي ساعده من خيرات الكويت . ثم تتابع :

لم يأت من فراغ
وإنما جاء إلى الوجود من أرحامنا
من وجهنا الشاحب ، من عاهاتنا
من فكرنا .. وغدرنا ... وحبنا لذاتنا
وعقدة السلطة في دمائنا
إنه خلاصة لكل سيئاتنا
كفى ... كفى ... نجلس فوق قبرها
نخرق الثياب ... نهرب من ذنوبنا
لا أحد يجرؤ أن يهرب من وحشية المأساة
إن دم الكويت منثور على ثيابنا
أليست الشعوب أيضًا تصنع الطغاة

هنا يبدو السهمُ واضحًا . وإصبع الإتهام لم يعد حائرًا فقد توجه إلى ذاك الولد المشوه الذي يتشكل من عُقد النقص ومركبات الخطيئة التي فصلت بين الأمة العربية فالأنانية والتسلط والتكالب على السلطة جعل ذاك المعتوه يبرز ويعيث فسادًا .

ثم تتابع قصيدتها لنبذ الزيف والتلفيق ، والتنظير والبيع والشراء في الكلام :

**من حطم الكويت**

**حطّمها ... تلك الدكاكين التي تبيعنا الوحدة والقومية .**

**حطّمها عصرٌ من التلوث الخلقي .. والتفسخ القومي**

**والتلفيق ، والتصفيق ، والشراء ، والتصدير ، والتنظير**

**والكتابة الأمية .**

**حطّمها الغرور والجنون .. والأنظمة الفردية .**

**وألف ألف حاكم بأمره**

**استبدل القرآن بالنازية .**

وهكذا حمّلت جزءًا من الإجتياح أو مسؤولية ولادة المشوه لبعض الدول العربية التي حطمها الغرور ، والفردية . والتي تتاجر بالوطنية والقومية وفي داخلها معقل النازية ثم تُبرئ الشاعرة

نفسها ووطنـها من المشاركة في نفخ أوداج الثعبـان وشد عضلاته التي مرنّها فـي محاولةٍ للإستيـلاء على الكويت . لا بل فهي لا تفتـأ في كشف اللثام عن بعض وجـوه الحكام العرب لإبراز هوية التعامل عندهم .

لقد تميزت وتفردت الشاعـرة في عرض الوقائع والحقائق بمثل جرأتها الصـادقة ، بعد أن انتزعت الخوف من قلبهـا وقلمها على السـواء وأزاحت اللثـام الأدبي عـن آرائهـا التي بقـيت ممتـزجـة بالإنسانية والدم ، لم تجمد فيهـا العروق كما تجمدت عند البعض ولم تتحـول إلى أرنبة مُطاردة . وهي التي تسـتطيع أن تحيـا أينما شاءت بكل العـز والكرامة . لنبقَ مع كـلماتها النارية الـتي تبدو أعنف وأكثر ما قيل وما وصف . وأقل مما يستحق الموصوف :

**من قتل الكويت**

**لا أحد يجرؤ أن يقول (لا)**

**فكلنا شارك في جريمة القتل**

**وفي تربية الثعبان**

**وكلنا شارك في صناعة الشيطان**

**وكلنا صفق للطغاة والطغيان**

**فكيف نشكو الآن من أوثاننا**

ألم تكن حرفتنا أن ننحت الأوثان
من قتل الكويت
لا توجد المصادفة
في زمن السادية العمياء
والفاشية السوداء
واللصوص ، والحكام ، والتجار ، والصيارفة
لا توجد المصادفة
في زمن صارت به شعوبنا
أرانبًا مذعورة وخائفة
لا بيت للإنسان كي يسكنه
إلا بقلب العاصفة

لم يخبُ بريق الأمل لحظة في نفس الشاعرة ، ولم ينتابها اليأس حتى في حرف من حروف الكلمات التي صاغتها وضاءة جلية مليئة بالمكنون الحقيقي للأمة العربية ، فالحقيقة دائمًا عنوان مشاعرها ومضمون أقوالها وألوان رسومها لكنها في كل ذاك كانت دائمًا تحمل معنى الإشراق والحرية تحمل لون الثورة الدامية بالإصرار على استرداد الكويت مهما طال بها ظلم الأشرار ومقتحمو الدار . فتبث الأمل وتقوي العزيمة وتقرأ المستقبل .

ستبعث الكويت من رمادها ... كطائر الفينيق

وتصرخ الأمواج في الخليج

حي على الجهاد

حي على الجهاد

لابد في نهاية المطاف

أن يثأر المقتول في قاتله

وأن يدور الحبل حول رقبة الجلاد

لم تكتفِ الشاعرة بما جادت بها قريحتها المُلهَمَة من الشعر وكل ما جندته من ألفاظ وتعابير تدخل من خلالها كل نفس - صغيرة وكبيرة ، قريبة وبعيدة ، صديقة ومحايدة ، ثورية ومسالمة - فتثير فيها زوابع الإنتقام، وتكسب بها صدق المشاعر وحق الانتصار .

من خلال عاطفتها الصادقة ، وعرضها الأليم لوقائع الإجتياح . وقتل النفوس البريئة . ووحشية الغزو ، ومفارقات الحياة لذئب مفترس ينقض على حمامة وديعة مسالمة تحمل له الخير بين أجنحتها الناعمتين . رغم كل ذاك فقد لجأت لتفرغ شحناتها الباقية ، ولتصب جام غضبها فى بساط النثر الفسيح ، وكي تخاطب باقي الملايين الذين لم يسمعوا صوت الشعر .

فكتبت (برقيات عاجلة إلى وطني) أزاحت اللثام عن جميع مفردات اللغة العربية التي تخدم الثورة والحرية فجاء نثرها كما شعرها ، أقوى عاطفة ، وأصقل ديباجة ، وأعمق معنى وأقسى لفظًا وأكثر سخرية، وألهب حماسًا، وأمضى سلاحًا ، وأحَدُّ جرأة وأعلى صوتًا ، وأمتن التحامًا بكل ذرة تراب ، وأصدق دليلاً على وحشية الغزو .

تضمن الكتاب عشرين مقالاً كل مقال تحول إلى خيمة فُرشت فوق سماء الكويت للدفاع عن كل ذرة هواء فوق أرضه ، ولتعكس كل ألوان العذاب والقهر والتشرد الذي تعرض له أهل الكويت الشقيق . فيه تصوير بارع للإنتصار الذي حققته الكويت تلك الصخرة الملساء الراقدة في أحضان الخليج والتي تشع مودة ومحبة وخيرًا .

رغم ذاك فقد هزمت ذاك العملاق الضخم . وتحول كل فرد فيها إلى صخرة عاتية لا يخترقها الرصاص ولا تلويها الدبابات . لنبق مع الشاعرة في بعض فصول المسرحية .

«إن النظام العراقي ، بكل غروره وغطرسته ، ومخابراته ، وآلته الحربية الفتاكة لم يستطع أن يجند مواطنًا كويتًا واحدًا أن يكون دليلاً أو عميلاً له في ممارسة احتلاله» .

في مقطع آخر تتساءل بكل سخرية القهر ، وعبادة الأرض

والوطن بعد الله ، وبكل الوعي الحر الأبي لمعنى القومية العربية. وبكل الصفات الجارحة الخبيثة التي يستحقها الغازوون فتقول :

**هل تسمحون لي أن أحب وطني ؟**

**أيها الأصدقاء**

«إنني شاعرة كويتية عربية ، نذرت دمها ، وقلمها ، ومالها، من أجل إقامة وطن عربي جديد ، ينهض على أساس العقل ، والمعرفة ، والعدالة ، والديمقراطية ، ولكنني بكل إصرار أرفض الخلط بين القومية العربية ، وبين اللصوصية ، بين المثل الأعلى وبين الغوغائية ، وبين طهارة العقيدة ، ودعارة التطبيق» . .

فهل هناك أجرأ من تلك الكلمات في قاموس الشعوب فكل كلمة فيها مجبولة بقطرة من دم الشاعرة ، محاطة ببركان جياش يتفجر على الصفحات بأسلوب رشيق فيه كل معاني الإصرار والألم والتشبث بالأرض والوطن أكثر . . . وأكثر .

كان العراق في زمن السلم مع الكويت وزمن الحرب مع إيران الابن المدلل لسعاد الصباح خاصة لكاتبة وشاعرة وإمرأة كويتية تُدرِّس الاقتصاد وتحمل في قلبها كل معاني الإنسانية .

من إحدى أقوالها : في مقال نشرته (جريدة القبس الدولي) بتاريخ 5 / آب 1990 :

«لقد كنت دائمًا متهمة بأنني عراقية الهوى ، وأن كتاباتي شعرًا ونثرًا، مبللة بأمطار العراق ورطوبة أنهاره ونضارة بساتينه ، كان العراق يمثل لي ، تلك القوة الصاعدة ، الواعدة التي افتقدناها في السبعينيات ، كما كنت أرى فيه البديل القومي ، والاستراتيجي الذي سيصحح ميزان القوى بيننا وبين إسرائيل ، وينهي حالة الهوان ، والتخاذل والتشرذم والإنقلاب التي عصفت بدول المنطقة» .

فما الذي حدث حتي غامت الصورة الجميلة ، وبهتت ألواننا؟ كيف يبت بين عشية وضحاها بساتين النخيل في قلبي ، وماتت العصافير ، واختفى ضوء القمر ، كيف انكسر زجاج السماء فوق رأسي . . . ودخلت شظاياه في عيوني ؟ . .

إنني أكتب هذه الكلمات وأنا مدفونة تحت رماد هذا الزلزال العنيف الذي طمر أحلامي الجميلة وطمرني . ثم تصل المأساة إلى قمتها عندما يموت عمها بين يديها في إحدى مشافي لندن ، بجلطة دماغية بعد سماعه أنباء الغزو العراقي على الكويت ، ولا تستطيع نقله إلى الوطن الحبيب ليدفن في ترابه حسب وصيته ، وتظل أيامًا تفتش له عن تراب يحتضنه. فقد تشرد الكويتي في حياته ومماته واحتل العراق الصديق الدار والمقابر. . رغم كل ذاك الألم وتلك العواصف الساخنة التى حاقت بالكويت عامة

وبالشاعرة خاصة فإنها لم تتخل عن أسلوبها اللبق المؤدب الهادئ الرصين، وصورها المأساوية التي تؤطرها بلمسات إنسانية حنونة لا بل إنها تعتذر في المقالة بصراحة :

«إعذروني ، أيها السادة ، إذا كانت كلماتي عصبية ، وحارقة . . فالكتابة على فوهة بركان ، لابد أن يكون لها طعم الحريق» .

ومن هنا تأتي الثورية الفريدة التي فجرتها سعاد الصباح في القضايا القومية ، والأفكار الثورية والمعاني الحضارية ، ما تجنبه كثير من الشعراء الآخرون الذين لا يملكون شيئًا يخافون عليه . إلا إن ثورتها لم تقتصر على أبناء وطنها وإهمالهم وتكاسلهم . بل امتدت لتشمل زملاءها من الشعراء والأدباء الذين أداروا ظهورهم وقبعوا في دياجير ظلمة عقولهم وجبنهم المحترفين منهم والمرتزقة ، غير آبهة بعداوات هؤلاء لأنهم لا يستحقون الصداقة ولا كلمة الزمالة .

فتقول : «إنني لم أكتشف ما هو معنى جبن بعض المثقفين إلا في هذه الأيام المأساوية ، فكاتب يكتب بنصف أصابعه . . . وآخر بربع أصابعه . . . وصحافي كبير يكتب لي لا يقول شيئًا . . ولا يتخذ موقفًا . . . وكاتب يختبئ تحت اللحاف حتى لا يُلقى القبض عليه متلبسًا بجريمة قول الحقيقة . .» .

ثم لا تلبث أن تصفع بعض أطباء القومية العربية (كما وصفتهم) بنبال خيانتهم للكويت وجبن أفعالهم فمنهم من يميل مع القوي حتى ولو كان باطلاً لأنهم لم يتعودوا على الجرأة والثبات في الموقف الحر الأبي. . . فهم كالعشبة التي لا جذور لها كيفما مال الهواء تميل معه كي تحافظ على كرسي ورئته دون جهد أو استحقاق . لنقرأ ما قالته الشاعرة عنهم :

«عندما يسأل الكويتي وهو يبصق دمًا بعض أطباء القومية العربية وصيادلتها : ووطني الكويت ؟ ما هو وضعه الديموغرافي، والفيزيولوجي والعضوي والإنساني حسب تشخيصكم فيجيء الجواب . . . زائدة دودية طبعًا .

وما أصاب الكويت لم يكن سوى عملية جراحية حمقاء قام بها حلاق يمارس الجراحة . . بلا ترخيص قانوني» . .

ثم تتطرق إلى عملية النقد الذاتي والإشارة إلى الأخطاء التي ربما كانت سببًا في العدوان عليهم وهذا نوع من الفضيلة لأنها لم تبرئ ساحة الكويت من الخطأ . وها هي تنثر جملها وكأنها قائد على رأس قافلة من الجيش تحض جميع أبناء وطنها . على الإصلاح وتُسمع العالم الخارجي العربي وغيره بأن الإصلاح سوف يتم وإنه لا عيب في الخطأ بل العيب في الإستمرار فيه . ثم تخاطب أبناء وطنها بلغة الآمر الناهي وكلها ثقة بأنها تتكلم بلسان كل إنسان في الكويت فتقول :

«يجب أن نتعلم . ويجب أن نتغير ، ويجب أن لا نخاف من مواجهة المرايا ومواجهة أنفسنا» .

ثم تختتم كتابها ببضعة أسطر هي راية خفّاقة . ومنارة يُهتدى بها ، وعمل جماعي ، يدل على عِظم المحبة والإلتصاق بالوطن الأم وحلاوة الموت فداء عنه . وهذا أمر عادي في أي بلد في العالم إلا أن الكويت لم تكن تحسب حساب الدفاع حيث هي بلد السلام والرفاهية والأمن يحيق بها من موقعها بين الدول العربية الشقيقة . لنبق مع آخر معزوفة من أناملها الرقيقة وألحانها الشجية في (كتاب تحرير الكويت . . . كتاب كبير وقد شارك في تأليفه مئات الألوف من الكويتيين . . رجالاً ونساءً ، كبارًا وصغارًا ، شيوخًا ويافعين ، مقيمين ومهاجرين ، كل واحد منهم أضاف إلى الكتاب ، سطرًا أو كلمة ، أو نقطة حتى أشرق ضوء الشمس، وقرعت أجراس الحرية ، إن كتاب حريتنا ليس له مؤلف واحد . . . أو كاتب واحد . . . ولم تكتبه يد واحدة ، وإنما هو نشيد جماعي شاركت فيه ألوف الشفاه والحناجر .

إنه عمل سيمفوني ، شارك فيه كل كويتي بجملة موسيقية حتى اكتمل النشيد» .

وهنا نرى إنها أضفت على النثر جمالية الوصف الشعري بأسلوب مثير وعاطفة صادقة ، ليس فيها للأنانية والخوف مكان،

ولحب الظهور بيان . فكل فرد في الكويت هو جزء من جسد واحد وكل جزء ساهم قدر الإمكان وهذه نوع من الدعوى للعمل الجماعي ، ففي الاتحاد قوة وفي القوة جرأة وفي الجرأة ثقة وفي الثقة قوة . ولو أن جميع الدول العربية تتحد هكذا بيد واحدة لطالت العالم باليد الأخرى ثم ينبلج الصباح . . . وتشرق الشمس ، وتعود العصافير لأعشاشها وتعود المياه لمجراها، وينتصر الحق . . . والحب . . وينتصر العدل على الشيطان . وهنا تلملم الشاعرة عبق بلسمها الحنون وتنشره على الجراح الدامية . والقلوب الملتاعة. فتمتزج الكلمات بدماء الشعب الكويتي ودماء كل من مد لها يد العون مضمخة بالحب والوداد لتخرج ملونة بلون العيون . وفرحة القلوب وزغاريد الطبيعة، ونشوة الأرض . وسرعان ما تنتقل تلك الانفعالات إلى القارئ لما فيها من رقة فى الكلمة وشجون في المعني وفرحة في الأعماق إذ تقول :

**يا أمنا الكويت**

**ضمينا إلى صدرك بعد غربة**

**فنحن من دونك يا حبيبتي**

**جيش من الأيتام**

**لا نعرف الحب ، ولا الدفء ولا السلام**

مسافرون ضيعوا خارطة الشهور والأيام

حمائم قد نسيت مبادئ الكلام

يا أمنا الكويت

بالأحضان بالأحضان بالأحضان

فمدي فوقنا شراشف الحنان

دالت دولة الطغيان

إنكسرت سلاسل

إحترقت مقاصل

إنهدمت جدران

وانتصر الله على الشيطان

ثم لا تنسى الشاعرة الأصدقاء الذين هبوا لنجدتها والوقوف بجانبها كالسيف البتار ، تناديهم بقلب مفعم بالحب والتقدير والإحترام ، وكعادتها الرقيقة السمحاء تضعهم بمكانة القلب للكويت والضلوع والأجفان. إنها أجمل ما قيل في الشكر وأرق ما قُدِم من امتنان صادق من قلب فصلته الإنسانية وأرهفه الإحساس بالعاطفة تقول :

يا أصدقاء السيف ... قلبي معكم

وأنتم تقاتلون الوحش

بالعصي ، والفؤوس ، والأسنان

يا أصدقاء الغضب الكبير ، والإصرار ، والإيمان

بفضلكم عادت لنا الكويت

عزيزة قوية ، خفاقة الأعلام

بفضلكم عادت لنا ديرتنا

وعادت الأبراج والنوارس البيضاء والحمام

يا من حرستم أرضنا

بالقلب والضلوع والأجفان

بفضلكم سنصنع الكويت من جديد

ونزرع النخل في شطآنها

ونزرع الريحان

إن الشعوب دائمًا أقوى من الطوفان

هكذا خاطبت الشاعرة الأحبة الذين يحافظون وللأبد على أصالة الدم العربي والشهامة والمروءة هؤلاء هم الدول العربية التي آلمها ألم الكويت وأرهقها هول المفاجأة . وثار في دمها بركان الحميّة لتلك الحمامة الوديعة والتي لم ينمُ لها مخلب في السابق .

وسرعـان ما لبّوا نداء الأخوة وجـمعتهم الكارثة بيـد واحدة للذود عن جزء من أجـزاء الوطن العربي جزء هام من بنيان كـبير للوطن العربي يمثل رئة تضـخ الخير لكل طالب ومحـتاج ويمدّ يد البـر والإحـسان فـي كل المناسـبات للأشـقـاء العـرب . وهكذا انتصرت الكويت . انتصـر الحق في أرض الأمان بمساعدة الأقوياء والأشقـاء الأحباء وكل اعتـداء على شبر من الأرض العـربية من أقصى الغرب إلى أقصى الشـرق ومـن شمـال إلى جنوب الخارطة العربية هو اعتداء على كل الخارطـة العربية ولو اجتمع العرب يدًا واحدة وكـتلة واحدة لكانوا أقـوى أمة في العالـم وأكثر حـضارة وتقدمًا .

بهذا أخـتم القصائد القومـية الوطنية التي جمـعت بين عمق المضمـون وشمـوخ الشكل والمعنى ، وخصب الخـيال ، والنظرة الثاقـبة لقراءة المسـتقبل من خـلال التحليل المنطقي للأمـور وقوة الذكاء الذي يحلل . وهذا مـا برز في بعض القصـائد التي قرأت فيهـا الشاعرة المستـقبل قبل حدوثه وبـدأت بمعالجة المسبـبات قبل وقوع الكارثة ولكن يدًا واحدة لا تصفق . فمـا تتمتع به الشاعرة من ذكاء حاد ورؤية ثاقبة ورجـاحة عقل يصعب على الآخرين أن يصدقوه خاصـة إذا كان الآخرون يغرقون في النعيـم ولا يحسبون حساب الغد فقد استسلموا للأمان ونسوا تقلبات الزمان .

ثم الإبداع في بناء القصيدة فقد تبدأ بفكرة أو خاطرة أو رؤيا أو مرمى أو إحساس فتنصهر في داخلها تلك الانفعالات وتمتزج بإحساسها المرهف وجرأتها المميزة وصدقها الطاغي وثقتها التي لا حدود لها . ورهافة حسها وحنان إنسانيتها ، ونقاء سريرتها ثم تخرج لنا القصيدة بنيانًا متكاملاً منسجمًا موزونًا الشكل والمضمون لا ثغرة تعكره ولا رتابة يُمل منها ولا تكرار أو حشوًا بين طيات القصائد . بحيث لا يستطيع المرء أن يحذف كلمة أو يضيف أخرى وهذا ما جعلها في مصاف الشعراء المبدعين الذين ميزتهم الجرأة - وهم قلة - عبر التاريخ إلا أنها واحدة منهم في كل ما جادت به قريحتها الموهوبة وكنزها الثمين ، وينبوعها الذي لا ينضب .

وعلى الرغم من الغنائية التي تسيطر في بعض الأحيان على الشعراء الرومانسيين والتي تؤدي إلى فقدان الشكل أحيانًا . فإن وعي الشاعرة سعاد الصباح كان قويًا بحيث لم تسمح لبنيان القصيدة من التشتت بل ثابرت على التكامل في جميع أنواع شعرها .

إن كل ما عنته الشاعرة في حسها القومي والوطني في مخاطبة جذور الأصالة والحض على الجهاد للدفاع عن أرض الوطن ما هو إلا إحياء تلك الأصالة التي ران عليها الكسل

والخنوع يتدفق الذهب الأسود . والحاضر ما هو إلا امتداد لجذور وعراقة الماضي ومن ضاع ماضيه لامستقبل له ولا كيان، وما نسغ الحياة الحضارية إلا تدفق من جذور الماضي العريق إلى جذع الحاضر ثم إلى أغصان وأوراق المستقبل . وما الحياة إلا إدارة متكاملة قوامها الماضى والحاضر والمستقبل فإن فقد جزء من هذه الدارة تموت الأجزاء الباقية . فالماضي وإن جَمُد قليلاً فهو لم يزل زاخرًا بتراث البطولات التاريخية التي تلهم أبناء الوطن بوميض منها لتحدي وإبادة كل عائق يعترض سبيل الحرية والإنطلاق والمستقبل .

فالحضارة هي في نجاح البشر بالتحدي والتصدي لكل السلبيات التي تعرقل التقدم وليست نتيجة لما تقدمه الطبيعة من نزوات وأموال وخيرات. فالحضارة من صنع الإنسان وليست هبة تُقدم له .

• • • • •

# قضايا الكويت
# فى شعر سعاد الصباح

د. مختار على أبو غالى

# قضايا الكويت
# في شعر سعاد الصباح

يسكن كل مواطن في وطنه ، ويزاول حياته العادية في كثير من الأحوال دون أن ينتبه إلى علاقته بالوطن ، حتى إذا ما افتقده لسبب ما ، كالاغتراب مثلاً ، أو تعرض الوطن لمكروه ، اكتشف الإنسان أن الوطن يسكن فيه ، هذا شعور عام يتلبس كل مواطن يعرف معنى المواطنة.

والمبدعون بشكل خاص على دراية بأن الوطن يسكنهم في جميع حالاتهم ، فهم يعيشون قضايا وطنهم اليومية ، دون أن ينتظروا اغترابًا أو فقدانًا للوطن حتى يعبروا عن مشاعرهم تجاهه، كل ما في الأمر أن النبرة والحدة في الصوت ترتفع على قدر الاغتراب أو الفقدان .

وسعاد الصباح بما هي مواطنة كويتية ، وبما هي صوت مميز في الإبداع، لها وعيها وإبداعها ومسايرتها لتاريخ الكويت المعاصر، وقارئ شعرها ودارسة ، يتبين مناخات المواطنة في ثلاث دوائر ، إجتماعيًا ، وسياسيًا على المستوى الداخلي ، ثم في غزو الكويت ، وسنحاول هنا تتبع هذه المستويات الثلاثة .

● ● ● ● ●

## أولاً : الوجه الاجتماعي :

يتشكل هذا الوجه بالدرجة الأولى ، فيما تسميه الشاعرة بلعنة النفط ولو جاء هذا التركيب من غير خليجي لكان مشبوهًا، أما هنا فليس إلا وعيًا بالجانب السلبي على المواطن الكويتي . وهو ما يخص السياق ، ولن نسبق الشاعرة ، ولكننا سنستسلم لقصائدها ، وندعها تقول ما تراه من رؤية .

وأول قصيدة - بعد التقديم الإهداء - في أول دواوين الشاعرة ، وهو «أمنية» هى قصيدة «زمان اللؤلؤ» ، وهى قصيدة من بحر الرمل المجزوء ، تتغير فيه القافية مع كل بيتين ، على ما شاع في المرحلة الرومانسية ، تعالج فيها الشاعرة ما حدث من تغير في المجتمع بعد ظهور النفط ونقرأ البداية .

**في بلادي في مغاني أرض أجدادي الجميلة**

**في البوادي ، بعد أجيال من الصفو طويلة**

**ذات يوم .. هبط الساحر من ماء السماء**

**فكسا بالذهب الأسود أرض الصحراء**

البيتان الأولان يفتحان على الكويت قبل النفط (البوادي) ، ونلاحظ الرضا عن هذه الأجيال : مغاني ، الجميلة ، الصفو ، هذه هي النافذة التي نطل منها على مجتمع الكويت قبل النفط .

بعد ذلك في البيتين التاليين ، مجرد ذكر الحدث ، ووصفه بالساحر، وهو ما يموه على الأعين ، هذا هو كنز البترول ، وهبط من السماء ، فهو هبة دون تعب أو مجهود ، وكسا أرض الصحراء ، وهى البوادي ؟ :

**ورآه القوم ... واستغرقهم هذا البريق**

**فتناسوا أنهم جاءوا من البيت العتيق**

**أنهم جاءوا وفى جعبتهم خير عتاد**

**من تقاليد ، وأخلاق ، وحب للجهاد**

**وتناسوا لذة الكد وأيام الأرق**

**وتناسوا لقمة العيش يزكيها العرق**

**والسري فى زحمة الأمواج ، في وجه الرياح**

**وكفاح البحر ... ما أعظمه هذا الكفاح**

**والصواري رافعات في الورى أشرف بند**

**وعناء الرحلات الهوج ، في هند وسند**

هذا ما فعله ساحر النفط ، فبريقه سلب من الجيل الجديد ذاكرتهم ، فأنساهم إجمالاً «خير عتاد» والذي جاء تفصيله في: التقاليد، والأخلاق، وحب الجهاد ، وهو ميراث الآباء والأجداد

في معاناتهم الشاقة والممتعة في نفس الوقت من أجل لقمة العيش، وصراعهم الطويل مع البحر في رحلاتهم إلى الهند والسند، والتضحيات التى قدموها في الغوص والصيد .

ثم تأسى الشاعرة لحال الأجداد والأمجاد ، وسؤال اللؤلؤ المكنون في جوف البحار عنهم ، وتجعل اللؤلؤ ينحو باللائمة على جيل النفط قائلاً لهم في عتاب وتأنيب :

هاتفًا : ماذا دهاكم يا بني الجيل الجديد

فقنعتم بالرغيف السهل والعيش البليد ؟

وقعدتم عن طلابي ، وزهدتم في حياضي

أترون الذهب الأسود أصفى من بياضي ؟

وبعد أن تبين الشاعرة أهمية هذه الحكايات التى يجب أن تروى للأطفال عن كفاح الأجداد المشرف ، تنهي القصيدة بقولها :

هكذا ينتحر الخير .. وتبقى الذكريات

يا زمان اللؤلؤ الحر زمان الحرمات

اللائمة شديدة في انتحار الخير على أيدي جيل النفط ، وما لعبته الشاعرة على كلمة «الحر» فى مجيئها أولاً صفة اللؤلؤ ، أما الثانية فقد تكون مع اللؤلؤ أيضًا بزمان موته ليس فقط مع جيل

النفط ، وإنما بظهور اللؤلؤ الصناعي البديل الذى ابتكرته اليابان وشاع في الأسواق ، وأما الأجمل من هذا وذاك فهو أن يموت زمن الرجال الأحرار ، هؤلاء الذين عاشوا على الغوص بحثًا عن الجوهر الأصيل .

وعلى نفس الوزن (الرمل مجزوءًا) ، ونفس التشكيل (قافية لكل بيتين) تجئ في الديوان الثاني (**إليك يا ولدي**) قصيدة «**ارفعي المشعل**» ، وهنا لا تكتفي الشاعرة بتسجيل الظاهرة فقط، كما كان الشأن في القصيدة السابقة ، ولكنها تطالب بلدها وشباب وطنها أن ينهض ، ومن هنا سيتغير الخطاب في القصيدة على ما سنراه ، تقول الأبيات الأربعة الأولى :

**في بلادي ، في مغاني أرض أجدادى الجميلة**
**لي مع الأيام أخبار .. وأسرار طويلة**
**هل أبوح اليوم بالشجو لأحبائى وقومي ؟**
**فلعل البوح يجلو عن فؤادي بعض همي ..**

البيت الأول هو نفس البيت الأول في «زمان اللؤلؤ» لفظًا ومعنى ، فالمنطق واحد لم يتغير ، ولكنه تطور وأصبح شجوًا وهمًا ، ويحتاج إلى وقفة للبوح ، وقد باحت الشاعرة ، فبم باحت اليوم ؟

يا بلادي أنت أنأي من سني الأنجم عني
بيد أن الجرح في الأعماق يبكي .. ويغني ..
غرباء الأرض أغراهم بريق الذهب
فاستباحوا دون حق أرض أمي وأبي
وغدا ديدن أهل الحي خبث ونفاق
كيف يرتاح الضمير الحر ، والحر مراق ؟

.....

أضحت الأخلاق بين الناس عملات قديمة
سحب الحب طوتها عبرة الجرح الأليمة
كلما عدت أراني في حمي أهلي غريبة
وهم مثلي أغراب على أرض سليبية

.....

بما تأكلنا يومًا .. وباسم المدينة
يسقط الوعي .. ويغدو الشعب للغازي ضحية

النبرة العالية هى في شعور الاغتراب ، وقد أشرنا إلى أن الاغتراب يرهف الإحساس بالوطن ، والاغتراب إذا كان في

داخل الوطن يكون أشد قسوة ، وقد نبع هذا الشعور من تغير الأخلاق ، وهو ما نعته الشاعرة في القصيدة السابقة ، ولكنه أصبح حادًا هنا ، لدرجة أن يكون ديدن أهل الحي خبثًا ونفاقًا ، حتى إذا ما عادت الشاعرة إلى وطنها تجد نفسها غريبة في أهلها وهم أيضًا غرباء . . والخوف من أن يعرض مثل هذا الوضع المتردي بضياع الكويت ، وتصبح أثرًا بعد عين ، بعد أن تسقط باسم المدينة في أباطيل الحضارة الجديدة .

وهنا تأخذ الشاعرة سمت المصلحين الغيورين على مجتماعتهم ، والشباب عدة الوطن ، فاتجهت بالنداء إليهم :

**يا شبابي . إن فيكم كل آمالي الرفيعة**
**وبلادي بين أيديكم تراث ووديعة**
**فانهضوا من غفلة الوعى ، ومن أسر السكينة**
**قبل أن تغرق في الطوفان أعلام المدينة**
**انهضوا ... لا النار والبترول في أيد أمينة**
**لا ... ولا أنتم على وعي بأطماع دفينة**
**اطرحوا كل بريق ، وتناسوا كل زينة ..**
**واجعلو أيديكم درعًا على الحق أمينة**

**كل ما يبنى على الرمل .. هباء فى هباء**

**فابتنوا في العمق ، ما يرقى لأسباب السماء**

«يا شبابي» «وبلادى» بالإضافة إلى ياء المتكلم في كل ، فالشاعرة إذن متحدة في الشباب ، ومتحدة مع البلاد ، فالمسألة ليست خاصة بها ، وإنما بالوطن كله ، نحن مع الشاعرة ذات الرسالة الواعية ، وهى تدق ناقوس الخطر ، وتحذر من الخطر قبل وقوعه ، ولعل حسن التنبؤ الكامن فى الشعراء ، قد أطل برأسه من اللاشعور ، بما حدث في غضون سنوات، وليس هذا تكلفًا ، ولا يقولن قائل إن ذلك لم يكن في نية الشاعرة في أثناء هذه القصيدة ونحن نؤكد أنها لم تكن واعية ، ولكن اللاشعور لا علاقة له بوعي الشاعرة ، ونحن مرتبطون بالألفاظ والكلمات ذات الدلالة، مع الأحداث ، ولكننا نؤكد على أن إحساس الشاعر غير إحساس الآخرين ، فهو عنده من أهم مصادر المعرفة . .

ولا ننسى التحذير من «البترول» من جديد ، فهو سلاح ذو حدين ، فهو خطر وأداة سلبية إذا لم يكن «فى أيد أمينة» ، فالاعتماد عليه بناء على الرمل في هذه الأحوال ، ولن يكون إلا «هباء في هباء» .

**يا كويتي ، يا بلادي ، يا حياتي ، ومصيري**

ها أنا أشعر أني ضل في الأرض مسيري
فخذي العبرة مني .. وامسحي زيف الدهان
وأفيقي للعوالي قبل أن يمضي الآوان
هذه الأيام .. لا تعرف معنى للسبات
والذي يغفل تطويه رياح الذكريات
حركي فيك الشباب الحر .. نحو الأمنيات
ليس في الدنيا ثبات .. بل حياة أو ممات
ارجعي ماضيك الخالد حلو النغمات
وارفعي في العرب المشعل .. تحل الأمسيات

انظر عزيزي القارئ هذه النداءات الأربع المتتالية في بيت واحد ، وجميعها مضاف لياء المتكلم بما في ذلك من حميمية ، لتقف على مدى الصدق والحرص في هذه النبرة العالية ، أن تأخذ الكويت مبادرة السباق مع الزمن قبل فوات الآوان ، وأن تتخلص من الزيف والبريق الكاذب وأن تعيد ماضيها الأخلاقي الجميل ، وأن تنخرط في المحيط العربي الزاخر - نتنبه إلى الظل القومي - ، فأى صرخة مدوية هذه ؟

تبدو الشاعرة هنا «داعية نهضوية بامتياز ، بل هى تنبري إلى الأمر بهمة استثنائية ، لا تتولد إجمالاً إلا من عصبية شاعر» .

ومع الديوان الثالث «**فتافيت امرأة**» ننتقل نقلة نوعية ، ونلتقي بقصيدة «**إن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب**» ، ومازلنا في بحر الرمل ، ولكن بتشكيل شعر التفعيلة ، والعنوان المأخوذ من أبيات القصيدة ، يضرب مباشرة في الإمتداد إلى الوطن العربي ، فليكن ذلك في حساب القارئ ، ولكننا هنا معنيون في السياق بدائرة الوطن (الكويت) وهذا الجزء الخاص سيتعامل مباشرة مع ما قرأناه من نعي على الجيل الحاضر الناشئ مع كنز البترول ، وتمجيد الماضي ، والقصيدة طويلة كما هو واضح من عدد الصفحات ، وذات مقاطع مرقمة :

-١-

**إنني بنت الكويت**

**بنت هذا الشاطئ النائم فوق الرمل ،**

**كالظبي الجميل**

**في عيوني تتلاقى**

**أنجم الليل ، وأشجار النخيل**

**من هنا أبحر أجدادي جميعًا**

**ثم عادوا .. يحملون المستحيل ..**

-٢-

إنني بنت الكويت

ومع اللؤلؤ في البحر ترعرعت ،

ولملمت محاراً ونجومًا

آه .. كم كان معي البحر حنونًا وكريمًا

ثم جاء النفط شيطانًا رجيمًا

فانبطحنا عند رجليه رجالاً ونساء

وعبدناه صباحًا ومساءً

ونسينا خلق الصحراء .. والنخوة .. والقهوة

والمهباج .. والشعر القديما ..

وغرقنا في التفاهات ..

هدمنا كل ما كان مضيئًا ..

وأصيلاً .. وعظيمًا ..

تتكرر جملة «إنني بنت الكويت» خمس مرات في مفتتح خمس مقاطع ، بما هي جملة مفصلية وهى جملة اسمية ومؤكدة، وفي هذا أيما اعتزاز للشاعرة بانتمائها الكويتي ، ولكن هذا الاعتزاز يركز على جيل الغوص وأخلاقيات الصحراء ، وهو

الجيل الذي نشأت بينه الشاعرة ، وترعرعت في حضنه ، في حياة هنيئة تلخصها جملة «ولملمت محارًا ونجومًا» في التماهي بين المحار والنجوم ، والجمع بين العلوي والسفلي ، رقة وجمالاً وهناءة قلب .

ثم تحدث المفارقة مع هذه الحياة الوادعة ، فيجئ النفط شيطانًا رجيمًا ، وهو الذي رأيناه في السابق ساحرًا ، وهذا تحول إلى الأسوأ ، تحول معه الوضع الاجتماعي أشد سوءًا ، تلخصه ثنائيات الانبطاح عند رجليه رجالاً ونساءً ، وعبادته : صباحًا / مساء ، ونسيان خلق الصحراء برموز : النخوة - القهوة - المهباج (منفاخ النار) - الشعر القديم ، وقد سبق كذلك التأكيد على النسيان ، حيث التحول مقابل هذه الأخلاق إلى الغرق في التفاهات .

ثم تتكرر المفارقة :

-٣-

**إنني بنت الكويت**

**غرفتي الشمس**

**ومن بعض أسمائي الصباح**

**وجدودي اخترعوا الأمواج .. والبحر ..**

وموسيقى الرياح
صادقوا الموت .. فلا الخيل استراحت
من أمانيهم ..
ولا السيف استراح ..
ثم حلت لعنة النفط علينا
فاستبحنا كل ما ليس يباح
فالبساتين فراش للهوى
والنساء الأجنبيات ...
يعطرن لياليا الملاح
والدنانير على الأقدام ترمي ...
وعلى الأجساد تصطف القداح
هكذا يا وطني ...
ترفع رايات الكفاح !!
هكذا يبكي على الحائط سيف
أثري لأبي ..
هكذا من يأسه يبكي السلاح ..

المفارقة نفسها بين القديم الذي تمجده الشاعرة ، مقابل الوضع الراهن المتدهور ، والحدث الفاعل - كالعادة - لعنة النفط ، فما دام شيطانًا رجيمًا في المقطع السابق فهو يستتبع اللعنة هنا ، وأرادت الشاعرة وهى تمجد القديم أن تستفيد من اسم عائلتها «الصباح» ، في تحويله من كونه علمًا ، إلى «الدلالة اللغوية أول النهار» ، ليشع مع الشمس إشراقًا على الحياة .

وفي رسم صورة للوضع الحالي ، سجلت صورًا مزرية من التحلل والتفسخ ، في استباحة المحرمات ، وفي سخرية بالغة الأسى والمرارة تجعل الشاعرة هذا التفسخ رفعًا لرايات الكفاح !!

**ثم ماذا ؟**

**وطني ... أصبحت لا أعرفه**

**هل هو البازار ؟**

**والشيكات من غير رصيد ؟**

**ودكاكين القمار ؟**

**هل هو الخمسون (هامورا) يجوبون البحار ؟**

**هل هو الشعب الكويتي الذي**

**تذبحه المافيات في ضوء النهار ؟**

فاغضبي أيتها الأرض التي
ما شاركت في الحرب إلا بالصراخ
والتي ما أنجبت بعد مخاض موجع
غير فرسان (المناخ) ...

إن الوطن الذي كانت الشاعرة فيه تشعر بالغربة ، أصبح مجهولاً لديها ، حين بلغ السيل الزبى ، وأفصح النهار لذي عينين ، الشاعرة هنا تشير إلى حدث بعينه كان نتيجة لعدم البصيرة والسباحة في المجهول ، وهنا بعض الألفاظ المحلية التي لا يقف عليها غير الكويتي أو الذي عاش في الكويت ردحًا من الزمن ، وتحتاج إلى توضيح ، ليقف القارئ الذي يجهلها على حقيقة الإشارات الشعرية المكثفة :

«**البازاز**» : بمعنى السوق ، وهى كلمة فارسية ، وفدت إلى المنطقة مع بعض الجاليات الإيرانية التى اختلطت بالمجتمع الكويتي قديمًا، وترسبت كغيرها مع عامة الناس ، وأصبحت مستعملة بينهم.

«**هامور**» : نوع من السمك ، وهو من أطيب أنواع السمك في المنطقة ، واتخذ من هذه الكلمة كناية عن الذي يلعب بأقوات الشعب ويثرى من وراء ذلك ثراء فاحشًا بين

ليلة وضحاها ، فالهوامير تقابل «الحيتان» في الساحة المصرية ، ومعها «القطط السمان».

«المناخ» : هو سوق تجارى معادل لما نسميه «البورصة» ، تتداول فيه أسهم الشركات . .

أما الحدث الكويتي الذي لا يعرفه القارئ البعيد عن المنطقة ، فهو حدث اقتصادي ، ربما كان أكبر هذة معقدة متشابكة اقتصاديًا، ومستعصية على الحل تقريبًا ، حدثت في أوائل الثمانينات ، وأصبحت تعرف بأزمة المناخ .

وبنيت الأزمة على استغلال خاصية بسوق المناخ الكويتي ، وهى التعامل بالشيكات ، ودخلت عناصر أجنبية في اللعبة بقصد الإضرار بالوضع الاقتصادي ، وتركزت المأساة في ارتفاع الأسهم ارتفاعًا غير مبني على أسس اقتصادية ، وكانت الأسعار ترتفع من لحظة لأخرى في اليوم الواحد ، مما أغرى أعدادًا ضخمة من المواطنين والوافدين بالاندفاع وراء هذا الكسب السريع والجنوني ، حتى إن بعض الطلاب كانوا يتأخرون عن دراستهم ، ويذهبون للمناخ ، وكذلك الموظفون الذين تركوا عملهم، وانغمسوا في بريق المناخ ، وفجأة هبطت الأسعار مرة واحدة ، وأفرزت أسوأ وضع اقتصادى متشابك ، في شيكات لا رصيد لها ، وراح ضحيتها عدد كبير من الناس ، وأصبحت أزمة المناخ كارثة

الكويت في تلك الفترة.. ووظفت ثقافيًا - كما نراها في هذا المقطع - ، وللقارئ غير الكويتي هناك مسرحية بعنوان «فرسان المناخ» قام بها أقطاب المسرح الكويتي، سعد الفرج ، وحسين عبد الرضا ، وأخرون .

وهنا نعرف مدى السخرية البالغة في التعبير عن الأرض التي ما شاركت في الحرب إلا بالصراخ ، والتي ما أنجبت بعد مخاض موجع «غير فرسان المناخ» .

ولذلك تتوجه الشاعرة إلى هذه الأرض ، طالبة منها أن تغضب وتثور:

-٥-

**اغضبي ...**

**أيتها الأرض التي نامت طويلاً**

**في فراش من ذهب**

**اغضبي ...**

**أيتها الأرض التي تشرب بترولاً ..**

**وتبني عرشها فوق الحطب**

**اغضبي**

أيتها الأرض التي أسكرها المال ..

وأعماها البطر ..

إنني أرفض أن أعتبر النفط قدر ..

فأنا لا أعبد النار ..

ولا أرمي بأطفالي طعامًا للهب

يا بلادي ..

اخرجي من نشرة العملات .. والأسهم ..

وانضمي إلى جيش العرب ..

إن في لبنان أطفالاً لا يموتون ،

وعرضًا يغتصب ..

اغضبي أيتها الأرض ،

فإن الأرض لا يفلحها إلا الغضبب ...

الشاعرة تطور انفعالها مع تطور الأحداث في المجتمع، فلم تعد مجرد ناقدة اجتماعية ، ولا متمردة فقط، بل تطالب بالغضب، الناهد للثورة ، ولكن ما هي كيفية الثورة التي تطلبها ؟ وإلى أين تتجه ؟

تراها الشاعرة في شكل الانضمام «إلى جيش العرب» ، وفي

هذا امتداد لرؤيتها في الوحدة والقومية العربية ، وتذكر جزئية من هذه الرؤية فيما يحدث على أرض لبنان تلك الفترة من غارات إسرائيلية في عمق لبنان، وللقارئ الكريم أن يضيف هذه اللمحة إلى مكانها في الذاكرة ، لدى قومية الشاعرة هناك في الفصل الرابع مما سبق في هذه الدراسة ، وقد نوهنا في التقديم ، إلى أن بعض النصوص ، تضرب بجذورها في أكثر من اتجاه ، مما تعالجه الشاعرة من قضايا ، وهنا مثال لذلك ، والشاعرة تعززه وتعمقه على ما نراه في المقطع السادس .

-٦-

كلما أبصرت في الحلم صلاح الدين ...
يستجدي فتات الخبز في القدس ،
ويستعطي على باب السيوف العربية
كلما شاهدته
تائهًا ، يسأل في الصحراء عن أحياء طي ،
وتميم ، وغزية
كلما شاهدته في مركز البوليس ،
مرميًا على الحائط من غير كفيل أو هوية

صحت من أعماق روحي ،

أيها العصر الشعوبي الذي

ثار فيه السيف يحتاج لإبراز الهوية ..

صلاح الدين الأيوبي ، من الرمرز التاريخية التي ظهرت على الساحة الثقافية ، بما هو رمز للوحدة ، لا سيما تحريره للقدس من أيدي الصليبيين، والوضع الفلسطيني الراهن في حاجة إلى هذا البطل المنقذ ، ولكن الشاعرة وضعته في مفارقة مع صورته التاريخية ، فهو الآن متسول يستجدي فتات الخبز في القدس ، كما يستجدي النجدة العربية ، تائهًا في الصحراء بحثًا عن العرب الذين تفرقوا شيعًا وأحزابًا ، كما كانوا قبائل في أول الأمر . . وصلاح الدين بهذا المفهوم ، محسوب على فكر الشاعرة فى مجال العروبة .

ولكن الشاعرة بما هى عربية وحدوية ، تشير إلى وضع داخلي في الكويت ، يتلخص في ضرورة الكفيل الكويتي للعاملين هناك من الأجانب، حتى ولو كان عربيًا ، مما أفرز كثيرًا من المآسي والمشاكل لهؤلاء العاملين ، وسوء استغلالهم ، وتعرضهم للحبس ، وأكل حقوقهم المادية، وقد نجحت الشاعرة في توظيف صلاح الدين رمز الوحدة ، وجعلته واحدًا من هؤلاء الذين يبحثون عن لقمة العيش في الكويت ، ويتعرض لمآسي

الكفيل الكويتي ، وهذا من الشاعرة نظرة إنسـانية وشجاعة ، في النقد الذاتي :

-٧-

إنني بنت الكويت ..
كلما مر ببالي عرب اليوم ، بكيت ..
كلما فكرت في حال قريش ،
بعد أن مات رسول الله
خانتني دموعي ، فبكيت ..
كلما أبصرت هذا الوطن الممتد
بين القهر والقهر .. بكيت
كلما حدقت في خارطة الأمس
وفي خارطة اليوم ..
بكيت ..
كلما شاهدت عصفوراً بروما
أو بباريس .. يغني
دون أن يشعر بالخوف .. بكيت

كلما شاهدت طفلاً عربيًا

يشرب البغضاء من ثدي الإذاعات ..

بكيت ..

كلما شاهدت جيشًا عربيًا

يطلق النار على الشعب .. بكيت ..

كلما حدثني الحاكم عن عشق الجماهير له ،

وعن الشورى .. وعن حرية الرأى .. بكيت

كلما استجوبني بوليس قطر عربي

عن تفاصيل جوازي ..

عدت من حيث أتيت ..

فمع أن الشاعرة بنت الكويت ، كما أكدت ذلك بأشكال مختلفة من صور التأكيد ، مرة باستخدام «إن» ومرة بالتوكيد اللفظي بالتكرار في الجملة المفصلية ، على فضاء خمسة مقاطع ، مع هذا ، فقد انطلقت من معالجه داخلية في الكويت ، إلى الفضاء الأرحب ، إلى العالم العربي ، فوسعت دائرة نقدها إلى الوطن الكبير ، الذي أبدعت في رسم حدوده: من القهر إلى القهر ، وقارنت بين ماضيه وحاضره ومن ناحية

أخرى ، أخذت في المقارنة بينه وبين البلدان الأوربية في الحرية والأمن .

ثم ذكرت صوراً أليمة من السائد في البلدان العربية ، مرة في أجهزة الإعلام ، حيث تركز في كل دولة منها على تمجيد ما بداخلها ، وتحقير الدول العربية الأخرى ، فينشأ النشء على هذه السموم ، ومرة في الحروب بين هذه الدول العربية ، وقد جاء وقت قابل للتحدي عن وجود أية دولة عربية ليس بينها وبين جارتها صراع على الحدود ، وكنا نذهل حين نتلفت على خريطة العالم العربي ، الممتد من الخليج إلى المحيط ، بحثًا عما يتحدانا ، فلا نجد . . ومرة أخرى عن نرجسية بعض الحكام الذين يباهون بما لا يفعلون ، ثم هذه الصور المؤذية حقًا في التدقيق البوليسي في جواز السفر للوافد العربي في حين ألغت أوروبا في دولها مثل هذه الصور .

ومع ذلك لا تفقد الشاعرة أملها في العروبة ، ولا في الفارس العربي المنقذ ، والذي يحقق الوعد ، بعيداً عن التشاؤم، تقول في الجزء الثاني من المقطع الثامن :

**سوف أبقى دائمًا ..**

**أنتظر المهدي يأتينا**

**وفي عينيه عصفور يغني ..**

وقمر ..

وتباشير مطر ..

سوف أبقى دائمًا ..

أبحث عن صفصافة .. عن نجمة ..

عن جنة خلف السراب ..

سوف أبقى دائمًا ..

أنتظر الورد الذي

يطلع من تحت التراب ..

ولكي تكون الشاعرة منصفة للأوضاع الاجتماعية في الكويت، وحتى لا تكون متهمة بالتجني على وطنها ، فإنها ترصد منه الجانب المشرق ، والذي لا يختلف عليه أحد ، من خلال قصيدتها بعنوان «وردة البحر» ، التي صاغتها على وزن المتقارب ، أيضًا في إطار شعر التفعيلة، وقد بلغ بها عشق الوطن مبلغه في التعبير ، ولكن هناك في المقطع السابع إشارة مضببة لا تكشف عن نفسها :

كويت ، كويت

أحب ابتسامتك الطيبة

وإيقاع صوتك إذ تضحكين

أحبك صامتة متعبة

وأعماق عينيك إذ تحزنين

أحبك في غربتي وارتحالي

وأشتاق كل حصاة .. وكل حجر

أحبك رغم حراب المغول

ورغم جيوش التتر

أحبك حين تكون السماء

مطرزة بالرعود ، ومثقوبة بالشرر

فكيف تصيرين أجمل عند اشتداد الخطر ؟

فحب الشاعرة للكويت مسلم لا شبه فيه ، ولكن الحب «رغم حراب المغول ، ورغم جيوش التتر» ، يشعر أن هناك أمرًا قد يوهم خطأ أنه حائل بين حب الشاعرة لوطنها ، وهذا الحائل المتوهم يوجد في داخل الكويت ، وليس من خارجها ، أما حقيقة ما تشير إليه الشاعرة فهو غامض ، لم تشأ الشاعرة أن تفصح عنه .

وربما كانت هذه الإشارة المضببة نقلة إلى الدائرة الثانية ، في الحديث عن السياسة الداخلية في الكويت .

## ثانيًا : عن السياسة الداخلية في الكويت :

وعن هذه الجزئية من المبحث نرى أنها ليست بعيدة عن الوجه الإجتماعي فالعلاقة بينها وثيقة ، كل ما في الأمر أن بعض المشاكل الإجتماعية قد تأخذ طابعًا سياسيًا ، قد يطفئ نارها القرار السياسي ، فيطمرها ويقضي عليها في أماكنها ، لو جاء في وقته المناسب .

ونلمح هذه الدائرة في قصيدتين ، وكلتاهما في الديوان الثاني : «**إليك يا ولدي**» ، ونبدأ مع قصيدة «**فتنة**» ، وهي من بحر المتقارب والعنوان بحد ذاته يفصح عن محتوى القصيدة ، ويلخص موضوعها ، والقصيدة مجموعة من المقاطع دون ترقيم ، والتزمت فيها الشاعرة بالوزن والقافية الواحدة ، على ما يعرف القارئ من أن هذا الديوان من إنتاج المرحلة الرومانسية ، ونبدأ من أول القصيدة :

**كويتية أنا بنت الخليج**
**وصاحبة الهامة العالية**
**وملء دمي مجد آل الصباح**
**ومنهم بناتي وأبنائيه ..**
**فكيف تحكم فينا الطغاة ؟**

وعاثوا بأعرافنا الغالية ؟

بأي الشرائع هم يحكمون ؟

ويلهون بالقيم الراسية ؟

أما وحدتنا دماء العروبة

والملة السمحة الهادية ؟

فكيف يعودون للمذهبية

وهى الوقيعة والداهية !؟

صغار يمزق شمل الكويت

ويمضي بقومي إلى الهاوية

بدأت الشاعرة بالهوية ، كويتية في الذروة ، هى والزوج والأبناء والبنات ، الكل من آل الصباح . . هذا هو الإطار العريض ، والذي يلقي بظله على نوع الفتنة ، فالاستفهام تعجبي من هؤلاء «الطغاة» الذين عاثوا بهذا الأصل العريق ، وعملوا على إحداث فتنة في الوقيعة بين من جمعتهم العروبة والدين ، وأشارت إلى السمة التي انطلق منها هؤلاء ، وهى «المذهبية» ، وللقارئ أن يفسرها ، ولكن تفسيره لن يكون يقينيًا ، فالكلمة حمالة أوجه ، وقد يسئ إليها أى تفسير ، وما دامت المسألة فتنة ،

فتسميتها يكون من قبيل المشاركة في هذه الفتنة ، والشاعرة تعالجها بما هو أفضل ، فقد ناشدت قومها المحافظة على تاريخ الكويت في الوحدة ، والابتعاد عن «اللهجة الجافية» ، وألا يقطعوا «الرحم المرتجي» ولا يفتحوا الباب «لطمع الفئة الباغية» حتى لاتجد بينهم مكانًا .

ثم تختتم الشاعرة قصيدتها بقولها :

أيا وطني .. أنا في غربتي ..
أحن إلى أرضك النائية
أراها على البعد طي الفؤاد
كأنك ما بين أحضانيه
وأبكي .. وأجزع .. خوفًا عليك
من الفتنة المرة الطاغية
فمأساة لبنان لما تزل
تلوح بألوانها القانية
فإياك .. إياك .. أن يخدعوك
وأن يدفعوك إلى الهاوية

فهنا إشارتان ، الأولى أن الشاعرة تعيش غربة بعيدة عن

وطنها ، وكما قلنا سابقًا ، الإغتراب عن الوطن يشعل العواطف تجاهه ، لا سيما إذا كان يتعرض لأى محنة ، والإشارة الأخرى، في وضع مأساة لبنان في واجهة فتنة الكويت ، إيماء بأنها فتنة طائفية ، فهي التي كانت تسيطر على لبنان في تلك الفترة .

والقصية الثانية بعنوان «**هل نسيتم**» ، وهي في الرد على الشائعات التى كانت تطارد الشيخ عبد الله مبارك ، وقد أشرنا إليها في مرثية الشاعرة لزوجها ، وإذا كان الرجل متألمًا ورافضًا أن يرد على ما يشاع ، فإن الزوجة لم تقبل السكوت ، وكانت هذه القصيدة نوعًا من الدفاع عن الشيخ .

وأشارت الشاعرة في ردها على الشائعات إلى حقيقة هذه الشائعات، جاء في آخر القصيدة قولها (من بحر الرمل) :

**لا تقولوا إنه يطلب حكمًا**

**إنه أعلى من الحكم وأسمى**

**من له في كل قلب منزلة**

**لا يرى في الحكم إلا مهزلة**

والشاعرة بنفسها تولت مسئولية الكشف عن وجود خلاف في وجهات النظر ين الأمير عبد الله السالم ونائبه عبد الله مبارك عام ١٩٦٠، حول عدد من الأمور ، مثل مشكلة الحدود مع العراق ،

وقضية تسليح الجيش ، والتسرع في إصدار القوانين الوضعية ، وبالذات مدونة القانون المدني والجنائي ، ولم يكن الخلاف حول السلطة ، أو من يخلف الحاكم، لأن ذلك كان من حق زوجها ، بما هو النائب ، ولسنه ، ولخبرته ، ونفوذه الفعلي في الجيش والشرطة والبادية ، وعلاقاته الخليجية والعربية، مما يجعل توليه بعد الأمير أمرًا طبيعيًا ويسيرًا ، ومتوقعًا من كل الأطراف، ولكنه قدم استقالته ، بناء على وجهة نظره فيما أشرنا إليه ، مع حرص الإنجليز على إبعاده ، نظرًا لإتجاهه القومي ، وتقاريرهم الدبلوماسية كانت وراء ما لحقه من إشاعات ، ولابد أن تكون هذه التقارير وجدت لها صدى، فالكويت لم تكن قد استقلت بعد .

والشاعرة بهذا التحليل للمعلومات ، لم تدع فرصة لأى تفسيرات خاطئة في السياق .

**ولم يبق لنا إلا موقف الشاعرة من غزو الكويت وتحريرها وهو المبحث الثالث من قضايا الكويت .**

## ثالثًا : غزو الكويت :

كم هو قاس شعور المواطن حيث يتعرض وطنه لغزو خارجى، ويكون الشعر أقسي ، حين يكون الغازي من أبناء العمومة .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

ويكون أقسى وأقسي ، حين يكون لهذا المواطن مواقف رائعة في السابق مع من غزا وطنه . . فما بالك لو كان المواطن شاعرًا رقيق الحاشية!! هذه هي سعاد الصباح منذ فجر الثانى من أغسطس ١٩٩٠ مع مفاجأة غزو العراق للكويت .

وتحولت الشاعرة إلى بركان من الغضب ، فحشدت كل إمكاناتها الفنية من النثر والشعر ، خرجت من ذهولها وبدأت العمل الإعلامى ، ونشرت غضبها فى الصحف السعودية الصادرة فى لندن ، وعلى رأسها صحيفة الشرق الأوسط ، وكانت أول كاتبة كويتية تتصدى للعدوان فى الصحافة الدولية ، «ساعدها على ذلك كونها عضوًا مؤسسًا وعضوًا فى اللجنة التنفيذية للمنظمة العربية لحقوق الإنسان ، وقامت بالإشتراك مع الدكتور محمد الرميحى ، ومحد الصقر ، وعبد الرحمن النجار ، بتحرير

جريدة (القبس) الدولية ، مع قليل من المحررين وأطلقوا صوت الكويت، وشاركت بقصائدها ، ومقالاتها اليومية فى مواكبة مسيرة التحرير والمقاومة، عدا مشاركتها في الندوات ، فى كل من مصر ، سوريا ، واشنطن ، وكان من ثمرة هذه الجهود ، ديوان من الشعر تحت عنوان «**برقيات عاجلة إلى وطنى**» ، وصدرت أولى طبعاته عام ١٩٩٠ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، في مصر ، وكتاب يجمع المقالات والدراسات الخاصة بهذا الموضوع، عنوانه «**هل تسمحون لي أن أحب وطني**» وصدر أول مرة في القاهرة ، أيضًا عام ١٩٩٠ .

ونحن معنيون بالشعر ، وسنأخذ من النثر ما يضيء الذي يحتاج إضاءة من الإنتاج الشعري .

في الديوان المشار إليه خمس قصائد كتبتها عقب تحرير الكويت ، وشاءت الشاعرة أن تضيف مع أول الديوان قصيدتين ، وهما من الإنتاج السابق على فترة الغزو ، ونشرتا فى ديوان «**فتافيت امرأة**» ، الأولى وهى «**إنني بنت الكويت**» مأخوذة من المقطع الأول والثامن من قصيدة كان عنوانها «**إن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب**» وغيرت الشاعرة من العنوان ، والقصيدة الثانية «**وردة البحر**» وقد أعيدت هنا كما نشرت أولاً دون تغيير .

ولا حرج على أي شاعر أن يعيد بعض ما نشر سابقًا تحت

أي حساب يراه ، ونستطيع أن نقرأ مغزى الإعادة هنا ، فالقصيدتان مشحونتان بعواطف الشاعرة تجاه الوطن ، وسبق لنا التعامل معهما في السياق الخاص ، وبما أنهما قبل الغزو وللشاعرة خمس قصائد في أثناء الغزو ، وقصيدة بعد التحرير، فكأن الشاعرة تقول : هأنا يا وطني معك قبل العزو ، وفى أثناء الغزو ، وبعد التحرير ، أي في جميع أوقاتك وأحوالك . . علمًا بأنها ليست في حاجة لإثبات وطنيتها ، فهواها الوطني مغروف ، وإنتاجها مطروح على الساحة الثقافية ، والكل على دراية به .

وأول قصائد الشاعرة فى أثناء الغزو عنوانها «**بطاقة من حبيبتي الكويت**» وهى من سبعة مقاطع مرقومة ، من بحر الرمل وشعر التفعيلة ، تقول في المقطع الأول :

-١-

**نحن باقون هنا ..**

**نحن باقون هنا ..**

**هذه الأرض من الماء إلى الماء .. لنا**

**ومن القلب إلى القلب .. لنا**

**ومن الآه إلى الآه .. لنا**

كل دبوس إذا أدمي بلادي

هو في قلبي أنا

التأكيد على البقاء أخذ شكلين : الجملة الإسمية ، والتوكيد اللفظي بإعادة الجملة ، كما هى خاصية الشاعرة فى التعبير . . ثم هذا التعريف الشاعري لجغرافية الأرض : الحدود تبدأ من الماء، وتنتهى إلى الماء ، والماء هو سر الحياة ، وتبدأ مرة أخرى من القلب ، وتنتهى إلى القلب ، والقلب منبع العواطف والإيمان، وأضيق ما فيه يسع الأرض والسماء «ما وسعنى أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن» وحدود الأرض مرة ثالثة بداية من الآه ، وانتهاء إلي الآه ، فجميع التعبيرات الانفعالية محجوزة لهذه الأرض ، فليس مسموحًا لأدنى إصابة أن تمس الوطن ، مهما دق حجمها ، حتى ولو كانت دبوس إبرة، إلا مرورًا بقلب المواطن/ الشاعرة.

وفي المقاطع الخمسة التالية تكشف الشاعرة عن حيثيات هذه العاطفة الحادة تجاه الوطن ، مما يقربه كل مواطن ، من حماية وغذاء وحنان ، إلى تاريخ حافل قديمًا وحديثًا ، حتى تقول في المقطع الأخير :

-٧-

الكويتيون باقون هنا

الكويتيون باقون هنا

وجميع العرب الأشراف باقون هنا

الكويتيون باسم الله .. باسم السيف

باسم الأرض والأطفال ، والتاريخ

باقون هنا

نلثم الثغر الذي يلثمنا

نقطع الكف التي تضربنا

الضمير في أول القصيدة «نحن» استبدل به «الكويتيون» في نهاية القصيدة ، فانظر العجب في لغة الشعر . حيث يفسر الضمير في الأول بالظاهر في الآخر ، على شريطة ألا يؤدي الإضمار إلى إبهام وهذه الوسيلة التعبيرية لا تظهر إلا فى الإبداع الحديث ، لا سيما الشعري منه.

أما اللفتة الجميلة الدالة فهي فى إضافة العرب الأشراف إلى الكويتيين، وجمال الدلالة أن الشاعرة لم يهتز إيمانها بعروبتها ومبادئها ، مثلما تعرض آخرون وسبق لنا الإشارة إلى مقياس مدى الصدق في العروبة- خاصة الكويتيين منهم - ثباتهم على

المبدأ في محنة الغزو العراقي للكويت ، وسبق أن طبقنا المقياس نفسه على الشاعر الكويتى الأستاذ أحمد السقاف .

وأحيانًا يأخذ التعبير من لغة التضاد شكلاً يتماهى فيه مفارقة في الوقائع ، كالذي نراه في المقطع الثالث من قصيدة «سوف نبقى غاضبين» التي صاغتها الشاعرة على وزن الرمل (٤٥) :

أيها الجار الذي هدم داري
وأنا عمرت في قلبى له ركنًا وداراً
إنني مكسورة .. مقهورة .. ذاهلة ..
تقذف الخيبة أحلامى يمينًا ويساراً ..
يا الذي أهديته الماء .. وأهدانى الحصارا
يا الذي أهديته نصراً من الله ..
وأهداني احتلالاً .. وانكساراً
يا الذي أحرق أسراب العصافير ..
وما قدم للريش اعتذاراً
لا تؤاخذني إذا جن جنوني
أنت لم تترك لإنسان خياراً ..

نلاحظ في النداءات الخمسة أن المنادي في جميعها بصفته

وليس باسمه، ومع كل نداء ثنائية ضدية هدم / عمرت / ، الصحارى / الماء، الأفق / الحصار ، النصر / الإحتلال والإنكسار ، يحرق / لا يعتذر ، وليست هذه المتضادات مجرد بلاغة ، فعلي المستوى الشخصى يعرف الكل موقفها مع العراق أيام حربه الطويلة مع إيران ، وكانت الكويت كذلك ماديًا ومعنويًا، فكان الجزاء جزاء سنمار .

وجاء في الجزء الأخير من القصيدة :

**عندما يطعنني في الظهر سيف عربي**

**يصبح التاريخ عارًا ..**

**عندما يذبحني أبناء عمي**

**في فراشي ..**

**يصبح الحلم العروبي .. غبارًا ..**

ولا يخطر على بال القارئ أن هنا ارتدادًا عن الحلم العربي ، أبدًا ، أما كونه غبارًا فمسئولية من عبث بهذا الحلم ، ووظفه كذبًا وبهتانًا في استحلال الكويت تحت مسمى الوحدة العربية ، أو كما سماه يومئذ «عودة الفرع إلى الأصل» ، وقد عبرت الشاعرة بوضوح تام لا لبس فيه عن صلابة عروبتها وعدم إهتزاز مبادئها بسبب غزو الكويت ، وعيها كان حاضرًا دائمًا ، استطاعت أن تفرق بين المبدأ والعبث بالمبدأ .

«بكل موضوعية أقول : إن ما جرى على أرض الكويت هو عمل تخريبي .. لا عمل وحدوي .. عمل مبني على النرجسية، لا قرار مبني على المؤسسات الديمقراطية والشعبية ، ولأنني قومية عربية ووحدوية أرفض الخلط الغوغائي بين التوحيد والتخريب ، فمحاولة قتل الكويت عمل إعتباطي وفردي ، لا علاقة له بالقومية ، ولا بالعروبة ، ولا بالفكر الوحدوي» .

واستعارت الشاعرة ثلاثة أسماء للغزاة : المغول ، التتار ، الذباب أما الذباب ، فهو واضح التحقير ، والمغول والتتار تحتفظ لهما ذاكرة التاريخ بأبشع صورة للهمجية والبربرية والوحشية، وأصبحا مثلاً لكل ما هو منفر ولا أخلاقى ، نرى ذلك في قصيدة الشاعرة «**سيرحل المغول**» وهى من موسيقى بحر الرجز ، تؤكد فيها الشاعرة بثقة تامة على عودة الكويت وتحريرها ، وهو ما كان علي ثقة به كل ذى حس شريف ونبيل وأصيل ، لأنه منطق الأشياء ، وجدلية التاريخ .

والبرقيات دخلت الشعر الحديث ، لا سيما العناوين ، والبرقية سريعة ومكثفة ، فهى إذن من سمات العصر ، أليس هو عصر السرعة ؟ وهي أقرب إلى لغة الشعر ، فأظهر خصائصه التكثيف .

وحدث مثل غزو الكويت ، يتطلب العمل السريع والمركز ،

فأن تلجأ الشاعرة إلى لغة البرقيات ، فقد تعاملت مع مقتضيات الحال بلغتها، فى «**ثلاث برقيات عاجلة إلى وطني**» ، ولأهمية الدلالة وعمقها جعلت الديوان كله بمثابة «**برقيات عاجلة إلى وطني**» ، وتصطنع الشاعرة لغة نوعية في البرقيات الثلاث ، على غرار ما في البرقية الأولى (من بحر الرجز) :

سوف نظل دائمًا ..

أهل الندى ، والعفو ، والسماح

لو جرحونا مرة

نطلع كالأزهار من ذاكرة الجراح

أو كسروا جناحنا

كنا لهم

أكثر من صدر ، ومن جناح

أو دخلوا بيوتنا

نطعمهم من خبزنا ، وتمرنا

نشركهم برزقنا

نحيطهم بحبنا

ونفرش الورود في موكبهم

**وننثر الأقاح ..**

وخلاصة هذه اللغة ، مقابلة الإساءة بالإحسان ، وهى لغة راقية ، تصدر عن نفوس كبيرة ، تستغفر لقاتلها ، كما فعل عمر - أو علي - ، وقد تنجح في الإصلاح ما لا ينجح السلاح ، ولكنها في هذا المقام مشكوك فيها ، فهى لغة لا يفهمها المغول والتتار ، وليس هذا ببعيد على إدراك الشاعرة ، فبعد أن أكدت لغتها في باقي البرقيات ، تدرك أنهم ليسوا على مستوى الخطاب، فتقول في نهاية البرقية الثالثة :

**فلملموا خيولكم .. وانسحبوا ..**

**ولملموا أشياءكم .. وانصرفوا ..**

**لا أحد يقدر أن يغير التاريخ ..**

**أو يستعمر الأرواح**

**لا أحد يقدر أن يطفئ نور الشمس**

**أو يصادر الصباح ..**

والقصيدة الخامسة في أثناء الغزو بعنوان «**من قتل الكويت**» وهى من بحر الرجز في إطار شعر التفعيلة ، ومن عشر مقاطع مرقومة ، تصرخ فيها الشاعرة بأسئلة عديدة لا تنتظر إجابات ، فبعضها نعرف إجابته جميعنًا، وبعضها تعجبي ، وبعضها استنكاري ، وبعضها يقرر إدانتنا في الحدث الذي جرى :

-١-

من قتل الكويت ؟

ينفجر السؤال في عقلي ، وفي قلبي ..

كنهر من لهب

كيف تموت وردة بلا سبب ؟

كيف تموت نخلة بلا سبب ؟

هل أعجمي يا ترى قاتلها

أم عربى جاء من أرض العرب ؟

والسؤال الأخير هنا ليس شكًا فى أعجمية القاتل أو عروبته، ولكنه لبشاعة الحدث يستكثر أن يقع من عربي ، فمهما أكدت كل الحقائق أنه عربي ، فإنه ليس جديرًا بهذه الهوية ، والوردة والنخلة رمزان للكويت ، وهما مما لا يموت تحت أى سبب ، وجاء المقطع الثاني موضحًا ومضيفًا رموزًا جديدة ، مع بدايته بالسؤال نفسه ، ولكنه يختم بسؤال إجابة عن سؤال :

من قتل الكويت ؟

هل نزعة سادية فينا إلى الخراب ؟

أم شهوة الأعراب كي يفترسوا الأعراب ؟

وقد سبق لنا الإشارة إلى اختيار الشاعرة لفظ «الأعراب» بدلاً من العرب ، وعن سياق الكلمة فى القرآن ، وعودتها إليها هنا تؤكد وعي الشاعرة بالدلالة والقصد إليها ، لتنفي العروبة التي وردت في نهاية المقطع الأول .. وجاء في المقطع الثالث :

**من قتل الكويت ؟**

**لم يسقط القاتل من سحابة**

**ولا أتى من عالم الأحلام**

**أما اشتركنا كلنا في كورس النظام ؟**

**أما هتفنا كلنا لسيد النظام ؟**

**أما مسحنا دائمًا بشعرنا .. ونثرنا ..**

**أحذية الحكام ؟**

**ألم نجمل دائمًا أخطاءهم**

**بأعذب الكلام ..**

**وأكذب الكلام .. ؟**

**ألم نسر في موكب الحجاج كالأغنام ؟**

وهنا أيضًا إجابة عن السؤال المركزي عن قاتل الكويت ، باستفهامات تقرر مسئوليتنا في صنعة القاتل ، ومن المقصودون

بضمير الجماعة المتكلمين؟ هم الذين غنوا وتغنوا في الإحتفالات السنوية في «المربد» بالعراق ، على مدار حربه مع إيران ، ومنهم الشاعرة التي اعترفت بذلك، ولكنها كغيرها - ممن شاركوا في صناعة الطاغوت على «قياسنا» على حد تعبيرها - وقعت في الخديعة التي أنطلت على الكثيرين من المثقفين العرب، رواد المربد كل عام ، وفي المقطع السابع إجابة بأسلوب خبري عن السؤال المركزي :

-٧-

من حطم الكويت ؟

حطمها .. تلك الدكاكين التى تبيعنا الوحدة والقومية

حطمها عصر من التلوث الخلقي ، والتفسخ القومي

والتلفيق ، والتصفيق ، والشراء ، والتصدير ،

والتنظير .. والكتابة الأمية ..

حطمها الغرور .. والجنون ، والأنظمة الفردية ..

وألف ألف حاكم بأمره ..

استبدل القرآن بالنازية

ومرسلون ما لهم رسالة ..

وأنبياء ما لهم قضية ..

**لم تسقط الكويت إلا عندما**

تحول الفكر إلى زائدة دودية

وأصبحت أحرفنا من خشب ..

وأصبحت أفكارنا من خشب

وأصبحت شفاهنا ثلجية

لم تسقط الكويت إلا عندما

تساقطت سنابل الحرية

وأصبحت دبابة واحدة

قادرة على أن تمضغ القانون في دقائق ..

وتأكل الشرعية

ومن الثابت لكل من كان متابعًا لحرب الخليج الأولى ، أن النظام العراقى رفع شعار الدفاع عن البوابة الشرقية ، حتى يضمن انضواء الوحدويين من المثقفين العرب ، وقد وقع الكثيرون في خدعة المتاجرة بهذا الهدف النبيل ، والحق أن نعي الشاعرة على الوضع العربي المتردي كان عاليًا ، بسبب الغرور ، والاستبداد والتأله ، والكذب على الشعوب وخداعها وتضليلها ، مما يتيح الفرص لمثل كارثة غزو الكويت ، وما جره ذلك من وبال على

الأمة ، مـازالت تعاني منه الكثـير حتى الآن ، وقـد رجع بالأمة القهقري عشرات السنين .

وهذا هو المقطع العاشر والأخير في هذه القصيدة :

-١٠-

**ستبعث الكويت من رمادها .. كطائر الفينيق**
**وتبدأ الرحلة من أولها ..**
**ويرفع القلوع سندباد**
**وينبت العشب على دفاتر الأولاد**
**وتصرخ الأمواج في الخليج ،**
**حي على الجهاد ..**
**حي على الجهاد ..**
**لابد في النهاية المطاف**
**أن يثأر المقتول من قاتله**
**وأن يدور الحبل حول رقبة الجلاد ..**

في عـودة إلى نبرة التـفـاؤل الواثقة بـعودة الكويت ، وقـد وظفت الشـاعرة في خدمـة المعنى رمزين أسطوريين هـما : طائر الفينيق ، والسندباد، أما السندبـاد فقد أشارت إليه الشاعـرة كثيراً في انتمائها إلى الكويت والخليج ، لعلاقته بالبحر ، وهو من أبرز

الرموز فى أدبنا الشعبي، المأخوذ أصلاً من كتاب «ألف ليلة وليلة» وأول من اكتشفه في شعرنا الحديث هو صلاح عبد الصبور ، ومن بعده تلقفه الشعراء .

وأما طائر الفينيق ، وإن لم يكن في شهرة السندباد عند عامة القراء فهو من «تيمة» الخصب والنماء ، وهو موجود في الأساطير الكنعانية ، وأشار إليه المؤرخ الهلليني «ايسوب» ، وفى أساطير «بعلبك» ذات الأصول المصرية ، وفي الأساطير التى أوردها القديس «هيرونيم» كما هو معروف في الأساطير العبرية ، وتقول عنه الموسوعات الغربية ، إنه طائر بحجم النسر له عرف وهاج ، وثرعلة ذهبية ، وذنب أبيض موخوط ببضع أرياش حمراء ، وعيناه براقتان كالنجوم ، والمهم في هذا الطائر ، أنه إذا شعر بدنو أجله ، بني عشه من غصون ، يضمخها بالطيب ، ويعرض العش لحرارة الشمس فيلتهب ، وويحرق نفسه حيًا ، ويتكون من رماده شرنقة يخرج منها «فينيق جديد ، يحمل بقايا أبيه على هيكل الشمس» .

وبتحرير الكويت ، وعودة الأرض لأصحاب الأرض ، بعد غياب دام سبعة أشهر ، عادت الشاعرة إلى ألق الأفراح ، بعد أن تنفست الصعداء فأبدعت نشيد العودة بعنوان «**نقوش على عباءة الكويت**» ، على موسيقى الرجز الهادئة ، وهل كان مصادفة أن تجيء القصيدة من سبعة مقاطع مرقومة ؟ أو أن اللاشعور كان

وراء الرقم ، لتمحو سبعة الشهور المضنية في غياب الكويت ؟ أيًا كان الأمر فهذا هو واقع القصيدة، التي تردد فيها أكثر من مرة «سبعة شهور» ، وسبق لنا أن قلنا لا نؤمن بالمصادفة في العمل الشعرى .

والعنوان بداية الفرحة ، فالنقوش زخرفة جمالية دقيقة ، والعباءة من سمات المكان ، عباءة للرجل ، وعباءة للمرأة ، ومرتبطة بالمناسبات السارة والأعياد والأفراح ، ليحمل العنوان سمة الدخول إلى كل مقطع بنقوشه التعبيرية المنمقة :

-١-

**أيا صباح النص يا حبيبتي الكويت**
**أيتها العصفورة المائية ، الرائعة الألوان**
**بعد شهور سبعة في قبضة السجان**
**طلعت مثل وردة بيضاء من دفاتر النسيان**
**فانتصرت سنبلة القمح على قاطعها**
**وانتصرت عصفورة الحب على صيادها**
**وانتصر الله على الشيطان**

النداء المحبب للشاعرة في الأفراح والأتراح ، وهو في الأحزان كما سبقت الإشارة إلى ذلك - يقرب من الندبة

والإستغاثة ، وفي الأفراح كما هنا على طبيعته دعوة إلى الحضور، والنداء الأول جمع بين أداتي النداء : يا ، الهمزة ، والأولى لنداء البعيد ، والثانية (الهمزة) لنداء القريب ، فما بالك حين تجتمع الأداتان سويًا ، فالحبيبة قريبة وبعيدة ، والقرب جاء مع الهمزة أولاً ، ليكون المعنى تعال أيها القريب الحاضر يا من كنت بعيدًا ، وفى هذا أقصى حالات الفرح بعودة الحبيب الغائب قهرًا ، وقريب من هذا تعبيراتنا الدراجة حين يقول إنسان لمحبوبه العائد : أنا لا أصدق أننى معك الآن .

أرأيت أيها القارئ العزيز إلى هذه النقوش الدقيقة التي نسجت من حرفين ، ونسجت معزوفة منمنمة بين الزمان والمكان، وبين الداخل والخارج ؟

وإليك معزوفة أخرى على أنغام : الائتلاف والاختلاف ، والتى نبسطها ليسهل قراءتها في هذا الجدول :

| الفعل | الفاعل | التكملة |
|---|---|---|
| طلعت | وردة بيضاء | من دفاتر النسيان |
| انتصرت | سنبلة القمح | على قاطعها |
| انتصرت | عصفورة الحب | على صيادها |
| انتصر | الله | على الشيطان |

في هذا الجدول أربع جمل ، كل منها في المستوى النحوي من : فعل ماض ، وفاعل ، وجار ومجرور ، وهذه الجمل صالحة لأن تقرأ قراءتين : قراءة أفقية ، وهي العادية والمألوفة ، وتفرز لنا ثنائية ضدية بين مفردتين : الفاعل والتكملة ، وقراءة رأسية من أعلى لأسفل تعطي البعد الأعمق للنص ، وتفرز لنا مجموعات متناسقة ومؤتلفة ، فالأفعال متجانسة ، الفاعل في كل منها متجانس ، يبدأ من الوردة البيضاء ويتطور في سموه إلى سنبلة القمح ، فأكثر سموًا مع عصفورة الحب ، إلى غاية السمو (الله) وهو الجمال كله والخير كله ، ونفس الأمر في تجانس التكملة، بدءًا من النسيان ، مرورًا بالقاطع ، فالصياد ، انتهاء بالشيطان مجمع الشر كله ، ومجموع الفاعل المتناسق ، يشكل مفارقة كبرى مع تناسق التكملة فى الجمل الأربع . . ونكرر من جديد عبارتنا المأثورة : الشاعر العظيم هو الذي يخلق من التناقضات تجانسًا .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتصوره كل قارئ فى الألوان الرائعة للعصفورة، والرقة والجمال فى الوردة ، والنمنمة المتراصة فى سنبلة القمح، عرفنا إلى أى حد مدى النقوش وزخرفتها على عباءة الكويت .

ونقرأ السبعة عشر نداء فى المقطع الثالث :

-٣-

أيا صباح الحب ..

يا تفاحة القلب ، ويا إسوارة المرجان

أيا صباح البحر يا فيلكه

أيا صباح الموج يابوبيان

أيا صباح الخير ..

يا مشرف .. يا يرموك .. يا وفرة .. يا جهرة

يا شويخ .. يا دسمان

يا وطنى المولود من رماده

نخلة عنفوان

يا أجمل الحروف في قصائدى

يا وطن الأوطان

هتافات الفرحة الصادرة من القلب الهني من الداخل ، وزينة إسوارة المرجان في الخارج ، تقابل الأماكن بنداءات الهتاف ، وللقارئ الذي لا يعرف المكان في الكويت ، فيلكة ، بوبيان ، جزيرتان كويتيتان في الخليج، ولذا جاء معهما البحر والموج ، وسائر الأسماء أحياء وقرى كويتية، والشاعرة تعود من جديد

لأسطورة البعث في «الفينيق» ، الذي يتجدد من رماده المحروق ، وجاء هنا بالتيمة وليس بالاسم ، وهو ما وعدت به اسمًا علمًا أسطوريًا في القصيدة السابقة ، وها هو الوعد يتجسد من رماد موته طوال سبعة أشهر .

ومن تمام الفرحة باللقاء بعد الوحشة والضياع يقول المقطع الخامس:

-٥-

يا أمنا الكويت ..

بالأحضان .. بالأحضان .. بالأحضان

لقد تعبنا في منافينا ،

فمدى فوقنا شراشف الحنان

مضت شهور سبعة

ونحن ضائعون في الزمان والمكان

يا أمنا الكويت ..

دالت دولة الطغيان

وانكسرت سلاسل

واحترقت مقاصل

وانهدمت جدران

وانتصرت سنبلة القمح على قاطعها

وانتصرت عصفورة الحب على صيادها

وانتصر الله على الشيطان

«بالأحضان» تتكرر ثلاث مرات : كأنها مغناة ، وملحنة ، تمامًا كما قالها عبد الحليم حافظ مع شاعره في استقبال عودة سيناء لنا الأرض هى الأرض والوطن هو الوطن في كل مكان ، عزيز في غيابه ، جميل في حضوره ، ومن تمام العزف واللحن ينتهي المقطع بالأبيات الثلاثة التي انتهي بها المقطع الأول ، كما لو كان «كوبليه» مركزي في سيمفونية الطرب ، يعيده المغني ، ليردده مع جمهوره الذواقة للفن والجمال .

ولا تنسى الشاعرة أن تتقدم بالتحية والحب والإكبار ، لكل قاتل بما يملك ، مهما كان الذي يملكه ، من أجل عودة الكويت من رماد موتها ، في ختام قصيدتها في المقطع السابع :

-٧-

يا أصدقاء السيف .. قلبي معكم

وأنتم تقاتلون الوحش

بالعصي ، والفئوس ، والأسنان

يا أصدقاء الغضب الكبير .. والإصرار .. والإيمان

بفضلكم عادت لنا الكويت

عزيزة ، قوية ، خفاقة الأعلام

بفضلكم عادت لنا ديرتنا

وعادت الأبراج ، والنوارس البيضاء ، والحمام

يا من حرستم أرضنا

بالقلب ، والضلوع ، والأجفان

بفضلكم سنصنع الكويت من جديد

ونزرع النخيل في شطآنها

ونزرع الريحان

إن الشعوب دائمًا أقوى من الطوفان

وأخيرًا . .

فقد قالت الشاعرة كلمتها بإفاضة ، وطفنا معها طويلاً ، فهل تجرؤ على القول بأننا وفيناها حقها ؟ هذا ما لا يدعيه أى باحث ، فآفاق الشعر لا حدود لها .

ولعل القارئ العزيز قد أدرك من خلال جولتنا أننا كنا نتعامل مع النص الشعـري بالاستـسلام المطلق لمعطياتـه من قريب ، فلم ندخل إليه بمقولات جاهزة مسبقًا ، لوم نتعالم معه أو عليه ، فلم نقوله مـا لم يقل ، ولم نحمله مـا لا يطيق ، وكنا معه حـيادين وبسطاء ، وتوخينا القرب من القارئ العـام ، لأن جوهر القضايا التي شكلت تجربة الشاعرة ، كانت رسالة إلى هذا القارئ العام ، دون أن تغفل النخبة وهى موازنة صعبة .

* * * * *

# الفهرس

١ - مقدمة : سعاد الصباح ..... ٣
٢-استثنائية انتماء سعاد الصباح للأرض ..... ٩
٣- صورة الوطن فى شعر سعاد الصباح ..... ٢١
٤- الحس القومي والوطني في شعر سعاد الصباح ..... ٥٣
٥- قضايا الكويت فى شعر سعاد الصباح ..... ١١٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع : ١٣٧٩٠/ ٢٠٠٤

I.S.BN. 977 - 01 - 9175 - 2

# الوطن

في شعر

## سعاد الصباح

تتجذر صورة الوطن الكويتي في ذاكرة الشاعرة، وتعشش في وجدانها، وتعبر في أشعارها عن عاطفتها الوطنية المتوهجة لا سيما في ديوان «برقيات عاجلة إلى وطني» الذي يتضمن ثماني قصائد وطنية هي: (إنني بنت الكويت - وردة البحر - بطاقة من حبيبتي الكويت - سوف نبقى غاضبين - سيرحل المغول - ثلاث برقيات عاجلة إلى وطني - من قتل الكويت - نقوش على عباءة الكويت).